الباب الخامس

منزلة الجهاد، وخطر القعود عنه، وإعداد الأمة له

الفصل الأول: منزلة الجهاد في القرآن والسنة.

الفصل الثاني: منزلة الرباط.

الفصل الثالث: خطر القعود عن الجهاد.

الفصل الرابع: استمرار الجهاد ونحلة القاديانية.

الفصل الخامس: إعداد الأمة للجهاد.

الفصل السادس: توفير الموارد المالية اللازمة للجهاد.

الفصل الأول

منزلة الجهاد في القرآن والسنة

ذروة سنام الإسلام:

أيّاً كان حكم الجهاد في الإسلام: فرض كفاية، أم فرض عين، أم تطوُّعا، فلا ريب أن منزلة الجهاد في دين الله لا تعدلها منزلة، لأنَّ الجهاد هو الذي يحمي الأمَّة في دينها ودنياها، ويحرسها من أعدائها المتربِّصين بها: يحمي دينها وعقيدتها، ويحمي أرضها وحرماتها، ويحمي استقلالها وسيادتها، فهو حصن الأمة الحصين، وهو ركنها الركين، وهو الذي يصنع الأبطال، ويعدُّ الرجال، الذين يبذلون النفس والنفيس في سبيل الله. فلا غرو أن يعدَّ ذروة سنام الإسلام، كما جاء في حديث أبي هريرة: «الجهاد سنام العمل»[1]، وفي حديث معاذ: «ألا أنبئكم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»[2].

وتكاثرت آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم، تحثُّ على الجهاد في سبيل الله، وتُبيِّن فضله، ومكانة أصحابه عند الله، وأن المجاهد بمنزلة الذي يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا يفْتُر أبدًا.

وسنذكر جملة من ذلك في بيان (الإعداد الثقافي) عند حديثنا عن إعداد الأمة للجهاد في سبيل الله.

الجهاد أفضل ما يتطوَّع به:

وحسبنا أن نذكر هنا ما قرَّره العلماء: أن الجهاد في سبيل الله هو أفضل ما يتقرَّب به المسلم إلى ربه، بعد أداء الفرائض العينية عليه.

---

(١) رواه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٨)، وقال: حسن صحيح، عن أبي هريرة، والحديث متفق عليه بغير هذا اللفظ، وسيأتي تخريجه صـ٥٧٤.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٢٠١٦)، وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد منقطع، أبو وائل لم يسمع من معاذ، وعاصم بن أبي النجود صدوق حسن الحديث، وباقي رجاله رجال الشيخين، والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، عن معاذ.

وهنا نذكر ما قاله العلاَّمة الخِرَقي الحنبلي في مختصره الشهير:

قال أبو عبد الله (أحمد بن حنبل): (لا أعلم شيئًا من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد) قال ابن قدامة في (المغني) في شرح هذه الجملة:

(روى هذه المسألة عن أحمد جماعة، قال الأثرم: قال أحمد: لا نعلم شيئًا من أبواب البرِّ أفضل من السبيل. وقال الفضل بن زياد: سمعتُ أبا عبد الله، وذُكر له أمر الغزو، فجعل يبكي، ويقول: ما من أعمال البرِّ أفضل منه. وقال عنه مرة: ليس يعدل لقاء العدو شيء. ومباشرة القتال بنفسه أفضل الأعمال، والذين يقاتلون العدو، هم الذين يدفعون عن الإسلام وعن حريمهم، فأيُّ عمل أفضل منه! الناس آمنون وهم خائفون، قد بذلوا مُهَج أنفسهم.

وقد روى ابن مسعود قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لمواقيتها». قلتُ: ثم أي؟ قال: «ثم برُّ الوالدين». قلتُ: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[1].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ أو أيُّ الأعمال خير؟ قال: «إيمانٌ بالله ورسوله». قيل: ثم أيُّ شيء؟ قال: «الجهاد سنام العمل». قيل: ثم أيُّ شيء؟ قال: «حجٌّ مبرور». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[2].

وروى أبو سعيد الخُدْري قال: قيل: يا رسول الله، أيُّ الناس أفضل؟ قال: «مؤمنٌ مجاهدٌ في سبيل الله بنفسه وماله» متفق عليه[3].

---

(١) فات ابن قدامة أن ينسبه إلى الشيخين، فالحديث متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧)، ومسلم في الإيمان (٨٥)، كما رواه أحمد في المسند (٣٩٧٣)، والترمذي في البر والصلة (١٨٩٨)، والنسائي في المواقيت (٦١٠)، عن ابن مسعود.

(٢) فات ابن قدامة أن ينسبه إلى الشيخين أيضا، فالحديث متفق عليه: رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣)، كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد في المسند (٩٠٣٨)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٨) واللفظ له، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٨٥)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٨٨)، كما رواه أحمد في المسند (١١٨٣٨)، وأبو داود (٢٤٨٥)، والترمذي (١٦٦٠)، والنسائي (٣١٠٥)، ثلاثتهم في الجهاد، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٨)، عن أبي سعيد الخدري.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعِنان فرسه في سبيل الله». قال الترمذي: هذا حديث حسن[1].

ولأن الجهاد بذل المهجة والمال، ونفعه يعمُّ المسلمين كلَّهم، صغيرهم وكبيرهم، قويهم وضعيفهم، ذكرهم وأُنثاهم، وغيره لا يساويه في نفعه وخطره، فلا يساويه في فضله وأجره)[2] اهـ.

من أجل هذا كان الجهاد أفضل الأعمال، لما فيه من بذل المهجة والرُّوح، كما قال:

يجُودُ بالنفس إنْ ضَنَّ الجبانُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود[3]!

ثم إنَّ المجاهد يغترب عن أهله وموطنه الأصلي ليدافع عن الدين والأمة، ويعيش حياة متقشِّفة، وكما قال الإمام أحمد عن الذين يقاتلون العدو: الناس آمنون، وهم خائفون[4].

ثم إن نفع الجهاد للأمة جميعًا، كما قال ابن قدامة: نفعه يعمُّ المسلمين كلَّهم[5].

قال ابن تيمية بعد أن ذكر جملة وافرة من الآيات والأحاديث في فضل الجهاد:

(وهذا باب واسع، لم يَرِد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه.

وهو ظاهر عند الاعتبار؛ فإن نفع الجهاد عامٌّ لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل من محبَّة الله تعالى، والإخلاص له، والتوكُّل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله، وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٩٥٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٢)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٩)، عن ابن عباس.

(٢) المغني (١٣/ ١٠ - ١٢).

(٣) البيت لمسلم بن الوليد الأنصاري. انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (١٩/ ٤٠) طبعة دار الفكر. بيروت، وقيل: إنه أمدح بيت.

(٤) انظر: المغني (١٣/ ١١).

(٥) انظر: المغني (١٣/ ١٢).

والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائمًا: إما النصر والظفر؛ وإما الشهادة والجنة.

فإن الخَلق لا بد لهم من محيا وممات، ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما؛ فإن من الناس مَنْ يرغب في الأعمال الشديدة في الدين أو الدنيا مع قِلَّة منفعتها، فالجهاد أنفع فيهما من كل عمل شديد، وقد يرغب في ترفيه نفسه حتى يصادفه الموت، فموت الشهيد أيسر من كل ميتة، وهي أفضل الميتات)[1].

جهاد البحر أفضل من جهاد البر:

وإذا كان الجهاد كله ذروة سنام الإسلام، وأفضل ما يتطوَّع به المسلم من أعمال الخير كما قال الإمام أحمد، فإن الجهاد نفسه يتفاوت ويتفاضل، فبعضه أفضل من بعض. ولذا قال العلاَّمة الخِرَقي الحنبلي: (وغزو البحر أفضل من غزو البر) وشرحه ابن قدامة فقال: (وجملته أن الغزو في البحر مشروع، وفضله كثير. قال أنس بن مالك: نام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت أم حَرَام: فقلتُ: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عُرضوا عليَّ، غُزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَج هذا البحر (أي وسطه ومعظمه)، ملوكًا على الأسِرَّة، أو مثل الملوك على الأسرَّة». متفق عليه[2].

وروى أبو داود بإسناده، عن أم حَرَام عن النبي ﷺ أنه قال: «المائد في البحر، الذي يصيبه القيء، له أجر شهيد، والغَرِق له أجر شهيدين»[3]. (المائد الذي يصيبه دوار البحر)، ولأن البحر أعظم خطرًا ومشقَّة، فإنه بين خطر العدو وخطر الغرق، ولا يتمكَّن من الفرار إلا مع أصحابه، فكان أفضل من غيره)[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٢) متفق عليه عن أنس، وقد سبق تخريجه صـ ١٣٦.

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٤٩٣)، والبيهقي في السنن كتاب الحج (٤/ ٣٣٥)، عن أم حَرَام، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٧٧).

(٤) انظر: المغني (١٣/ ١٢، ١٣).

وهذا بيِّنٌ بحمد الله، فإنَّ الأجر على قدر النَّصَب والمشقَّة، ولا نزاع في أن خطر القتال في البحر ومشقَّته أعظم من القتال في البرِّ.

جهاد الجو أفضل من جهاد البر والبحر:

وإذا ثبت أنَّ جهاد البحر أفضل من جهاد البر، لما فيه من مخاطر أكبر، فينبغي أن يكون الجهاد في الجو أفضل أنواع الجهاد في عصرنا، لأنه أشدُّ خطرًا، وأكثر توقعًا للهلاك، ولأنه غدا أشدَّ الأسلحة نكايةً في الأعداء من غيره، ولهذا كانت خسارة طيَّار واحد مُدرَّب تعدل خسارة أعداد من غيره.

وحين ضُرب الطيران المصري في حرب سنة ١٩٦٧م - بضرب المطار والطائرات في مواقعها قبل أن تتحرَّك - تعطَّلت أسلحة المشاة والدبابات في سيناء؛ لأنها أصبحت مكشوفة للعدو، ولا تملك غطاء جويًّا يحميها.

من أجل هذا يعتبر الجهاد بالسلاح الجوي في زمننا أفضل أنواع الجهاد في سبيل الله تعالى.

تفضيل الجهاد على حجِّ النافلة:

عقد العلاَّمة ابن النحاس في كتابه (مشارع الأشواق) بابًا فيما جاء في فضل الجهاد في سبيل الله على الحج.

ذكر فيه ما رواه الشيخان، عن أبي هريرة قال: سُئل رسول الله ﷺ أيُّ العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرور»[(١)].

وكذلك حديث ماعز في معناه[(٢)]، وفيهما التصريح بأن رتبة الجهاد مقدَّمة على رتبة الحج، والله أعلم.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، وقد سبق تخريجه صـ ٥٠٨ .

(٢) عن النبي ﷺ: أنه سئل أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حجة برَّة تفضل سائر العمل كما بين مطلع الشمس إلى مغربها». رواه أحمد في المسند (١٩٠١٠)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح وهذا إسناد اختُلف فيه على أبي مسعود الجُريري، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٤٥)، عن ماعز التميمي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح (٣/ ٤٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٩١).

وروى ابن المبارك في الجهاد، عن سفيان، عن آدم بن علي قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: لسَفرة في سبيل الله أفضل من خمسين حَجَّة[1]. ورواه سعيد بن منصور في سننه، عن أبي الأحوص عنه، ورواه ابن أبي شيبة، عن وكيع، عن سفيان عنه.

قال ابن النحاس: هذا حديث موقوف، وأسانيده صِحاح، وقد يقال: إن مثل هذا لا يقال من قِبَل الرأي والاجتهاد، فسبيله سبيل المرفوع، والله أعلم.

وعن عمرو بن الأسود قال: قال عمر رضي الله عنه: عليكم بالحج فإنه عمل صالح، أمر الله به، والجهاد أفضل منه. رواه ابن أبي شيبة[2]، وهو موقوف أيضًا.

قال ابن النحاس: في هذه الأحاديث كلِّها: أنَّ الجهاد مطلقًا أفضل من الحج مطلقا. وقد جاء في أحاديث أُخَر: أن الجهاد دائمًا هو أفضل من حج النافلة، وأن حَجَّة الإسلام أفضل من الجهاد.

والظاهر: أن حَجَّة الإسلام إنما تكون أفضل من جهاد هو فرض كفاية، وأما الجهاد إذا صار فرض عين، فهو مُقَدَّم على حَجَّة الإسلام قطعًا، لوجوب فعله على الفور، ولعل الأحاديث المتقدِّمة محمولة على ذلك، والله أعلم[3].

قلت: وما قاله العلاَّمة ابن النحاس من تقديم الجهاد إذا كان فرض عين على حجٍّ الفريضة، هو الصواب بعينه، لما ذكره من وجوب فعله على الفور، ولأمر آخر هو: أن الجهاد يتعلَّق بالدفاع عن الأمة وكينونتها ورسالتها، فلو هلكت الأمة هلك الأفراد وضاع الحجُّ وغيره من العبادات والشعائر والأركان، التي لا يمكن إقامتها

---

(١) رواه ابن المبارك في الجهاد (٢٢٥)، وعبد الرزاق في الجهاد (٥/ ٢٦٠) برقم (٩٥٤٦)، وسعيد ابن منصور في الغزو (٢/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في الجهاد (٥ ـ ١٩٧٠)، وقال عوامة: موقوف لفظًا مرفوع حكمًا ورجاله ثقات، والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٣٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٨٨)، عن ابن عمر، وقد صحَّحه ابن النحاس، ورجح أن يكون سبيله سبيل المرفوع، كما سيأتي من كلامه في المتن.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الجهاد (١٩٧٣٨)، عن عمر.

(٣) انظر: مشارع الأشواق (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

واستمرارها إلا بوجود الأمة. والجهاد هو الذي يصونها ويدفع عنها، ويحافظ عليها.

أعمال الحج وأعمال الجهاد:

وقال العلماء المحقِّقون: إنَّ جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحجِّ، لأن الجهاد عبادة مُتعدِّية النفع إلى الغير، والحجُّ عبادة مقصور نفعها على صاحبها، بل نفع الجهاد مقصود به الذود عن حرمة الأمة وكيانها ودينها ورسالتها.

ومما يدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩، ٢٠].

الحج أم إنقاذ البوسنة؟

وفي أيام سنوات حرب البوسنة والهرسك، واشتداد أزمة المسلمين هناك، وحاجتهم الماسَّة إلى الغذاء والكساء والغطاء والدواء والتدفئة، وأدنى ما يمكن من السلاح للدفاع عن حياتهم أمام التوحُّش الصربي، في هذه الأثناء اقترح الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ فهمي هويدي في إحدى مقالاته الأسبوعية: الامتناع عن أداء الحج هذا العام، وتحويل نفقاته كلها إلى إنقاذ البوسنة والهرسك.

وقد سُئلتُ عن رأيي فيما كتبه الأستاذ هويدي، وقلتُ لهم: أوافقه وأخالفه: أوافقه في حجِّ التطوع، وأخالفه في حجِّ الفريضة، فلسنا في حاجة إلى إيقاف حجِّ الفريضة، فقد أثبتت الإحصاءات أن نحو ١٥٪ من الحجَّاج هم الذين يحجُّون لأول مرَّة، وأنَّ الأكثريَّة العظمى من الحجَّاج يحجُّون للمرة الثانية أو الثالثة، وربما العاشرة أو العشرين أو الأربعين. وأعرف أصدقاء من المصريين المتدينين يحجُّون سنويًّا منذ أربعين سنة أو أكثر.

فهؤلاء المتطوعون بالحجِّ هم الذين ندعوهم إلى التَّخلِّي عن الحجِّ هذا العام أو هذه الأعوام الكبيسة والشديدة على المسلمين، ليتبرَّعوا بنفقات حجِّهم إلى

إخوانهم الذين يُهدِّدهم الجوع والعري والمرض وبرد الشتاء القاسي الذي يصل إلى ٢٠° تحت الصفر، والتدفئة في هذا الجو تعتبر ضرورة من الضرورات، لا مجرَّد حاجة من الحاجات، فضلاً عن تهديد عدوهم الصربي لهم بالإبادة.

بل أقول: إن إنقاذ هؤلاء المسلمين وأمثالهم في عدد من أقطار الإسلام: فريضة على الأمة المسلمة بالتضامن، إذا لم يقُم بذلك بعضهم أَثِمَت الأمة كلُّها، وباءت بسخط الله، واستحقَّت نقمته وعقوبته.

إنَّ المسلمين في حاجة إلى ما سمَّيته (فقه الأولويات)، ليعرفوا كيف يُقدِّمون ما حقُّه أن يُقَدَّم من الأعمال، ويُؤخِّرون ما حقُّه أن يُؤَخَّر، ولا يُقَدِّمون المفضول على الفاضل، ولا النافلة على الفريضة، ولا الفريضة المتعلِّقة بحقِّ الفرد، على الفريضة المتعلِّقة بحقِّ الجماعة[1].

ومن القواعد المقرَّرة: أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدَّى الفريضة[2]. ولذا قيل: مَن شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومَن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.

وإننا نرى بأعيننا ملايين المسلمين مشغولين - بل منهمكين - في النوافل، وأبرزها سنويًّا: حجُّ التطوع، وعمرة رمضان، وإخوانهم المسلمون في أوطان كثيرة في أمسِّ الحاجة، بل الضرورة، إلى ما يمسك رمقهم، ويحفظ عليهم أصل الحياة.

***

(١) انظر: ما كتبناه (في فقه الأولويات) و(أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) رواه الربعي في وصايا العلماء عند حضور الموت صـ٣٣ من وصية أبي بكر لعمر.

الفصل الثاني

منزلة الرباط

أهمية الإقامة في الثغور:

ومن توابع الجهـاد: الرباط. وهو الإقامـة في الثغر لإعـزاز الدين، ودفع خطر الأعداء عن المسلمين. والمراد بالثغر: مكان ليس وراءه إسلام.

فالمرابطون بمثابة الحُـرَّاس لحدود البلاد الإسلامية من هجـوم المشركين والأعداء المعتدين.

وكلما كـان الثغر أشدُّ خـوفًا، واحتمـال الخطر عليه من الأعداء أكبـر: كانت المرابطة فيه أفضل وأعظم أجرًا.

واشترط الإمام مـالك: أن يكون الثغر الـمُقام فيـه غير وطنه - يعني بلده الذي نشأ فيه - وذلك لأن إقامته ببلده جبرية لا فضل له فيها.

ولكن من العلماء مَن نظر في ذلك بأنه قد يكون وطنه، وينوي بالإقامة فيه دفع العدو، فينال بذلك أجـر المرابطين. ومن ثَمَّ اختار كثيـر من السلف سكنى الثغور لهذا السبب[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيـمية: (ولهذا كان النبي ﷺ وأصحابـه يقيمون بالمدينة دون مكة، لمعان منهـا: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة، فإنَّ الرباط هو الـمُقام بمكان يخيفه العدو، ويخيف العدو. فمَن أقام فـيه بنية دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات)[2].

وقال: (الـمُـقام في ثغور المسلمين - كـالثغور الشـامية والمصـرية - أفضل من المجاورة في المسـاجد الثـلاثة، وما أعلم في هذا نزاعًا بين أهـل العلم. وقد نصَّ على ذلك غيـر واحد من الأئمة؛ وذلك لأن الرباط من جنس الجـهاد، والمجاورة غايتها أن تكون من جنس الحج، كـما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ

(١) الفتح (٧/ ٤٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤١٨).

﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩].

واستشهد بالأحاديث والآثار الواردة.

وهذه المرابطة في سبيل الله أفضل من الإقامة للعبادة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة: لأنْ أرابط ليلة في سبيل الله: أحبُّ إليَّ من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود[1].

فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع.

وكذلك بعث الإمام عبد الله بن المبارك إلى صديقه الزاهد العابد الفُضيل ابن عياض يرغِّبه في اللحاق به في الرباط، وترك الإقامة في الحرمين الشريفين، فقال له:

يا عابدَ الحَرَمين لو أبصَرْتَنَا ... لَعَلِمتَ أنك بالعبادة تلعبُ!

مَنْ كان يخْضِب خدَّه بدموعه ... فنحورُنا بدمائنا تَتَخَضَّبُ[2]

ذكر الإمام البخاري في كتاب الجهاد: باب فضل رباط يوم في سبيل الله. وأورد فيه: قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

كما أورد حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم

---

(١) رواه سعيد بن منصور في فضل الرباط (٢/ ١٥٩)، وعبد الرزاق في الجهاد (٥/ ٢٨١) برقم (٩٦١٦)، والحديث موقوف على أبي هريرة، ومع ذلك هو ضعيف لضعف عطاء الخراساني، قال الحافظ في التقريب صـ٣٩٢: صدوق يَهم كثيرا ويرسل ويدلس، لم يصح أن البخاري أخرج له.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢/ ٤٤٩)، وفي أحد ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر: أنكر أحد الدعاة الكبار نسبة هذا السند إلى ابن المبارك، مستبعدًا أن يقول: (أنك بالعبادة تلعب). والقصة ثابتة ومشهورة، أوردها السبكي بسنده في «الطبقات» ١: ٢٨٦، وذكرها ابن كثير في تفسيره في آخر سورة آل عمران (١/ ٤٤٧) طبعة الحلبي، نقلاً عن ابن عساكر، وذكرها الذهبي في أعلام النبلاء (٨/ ٣٦٤).

من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوحة يرُوحها العبد في سبيل الله أو الغَدوَة خير من الدنيا وما عليها»[1].

قال الحافظ في (الفتح): (الرباط: ملازمة المكان الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم.

قال: واستدلال المصنف بالآية: اختيار لأشهر التفاسير، فعن الحسن: ﴿اصْبِرُوا﴾: على طاعة الله. ﴿وَصَابِرُوا﴾: أعداء الله في الجهاد. ﴿وَرَابِطُوا﴾: في سبيل الله. وعن محمد بن كعب القُرظي، وزيد بن أسلم: قريب من ذلك[2].

قال ابن قتيبة: أصل الرباط: أن يربط هؤلاء خيلهم، وهؤلاء خيلهم، استعدادًا للقتال. ثم استُعمل لملازمة الثغور بنيَّة الحراسة. وإن لم يكن مع المرابطين خيل أصلاً.

قال: وفي الموطأ، عن أبي هريرة مرفوعًا: «وانتظار الصلاة، فذلكم الرباط»[3]، وهو في السنن عن أبي سعيد[4]، وفي المستدرك عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف: أنَّ الآية نزلت في ذلك، وأوضح بأنه لم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو فيه رباط[5] انتهى. قال الحافظ: وحمل الآية على الأول أظهر، وما احتجَّ به أبو سلمة لا حُجَّة فيه. ولا سيما مع ثبوت حديث الباب (بل

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢)، وأحمد في المسند (٢٢٨٧٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٤)، عن سهل بن سعد.

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٦١).

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٥١)، وأحمد في المسند (٨٠٢١)، والترمذي (٥١)، والنسائي (١٤٣)، كلاهما في الطهارة، ومالك في صلاة الجماعة (٣٨٤)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد في المسند (١٠٩٩٤)، وقال: صحيح وهذا إسناد حسن في المتابعات، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٤٢٧)، وعبد بن حميد في المسند (١/ ٣٠٣)، والدارمي في الطهارة (٦٩٨)، وأبو يعلى في المسند (٢/ ٥٠٧)، وابن خزيمة في الوضوء (١/ ٩٠)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٠٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري، والحاكم في الصلاة (١/ ١٩١)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٥) رواه الحاكم في التفسير (٢/ ٣٠١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب الصلوات (٢٨٩٧)، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن.

وأحاديث أخرى كثيرة)، فعلى تقدير تسليم أنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ، فلا يمنع ذلك من الأمر به، والترغيب فيه)[1]. فقد صحَّت الأحاديث بأنه بشَّر أمته بفتح ممالك كسرى وقيصر، وتكون عندئذ لأرض الإسلام ثغور عدَّة.

منزلة الرباط في الإسلام:

قال الإمام ابن قدامة: معنى الرباط: (الإقامة بالثغر، مقوِّيًا للمسلمين على الكفار. والثَّغر: كل مكان يخيف أهله العدو ويخيفهم. وأصل الرباط من رباط الخيل؛ لأن هؤلاء يربطون خيولهم، وهؤلاء يربطون خيولهم، كلٌّ يعدُّ لصاحبه، فسُمِّي المُقام بالثغور رباطًا وإن لم يكن فيه خيل. وفضله عظيم، وأجره كبير. قال أحمد: ليس يعدل الجهاد عندي والرباط شيء، والرباط دفع عن المسلمين، وعن حريمهم، وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو، فالرباط عندي أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعناء والتعب والمشقَّة.

وقد روي في فضل الرباط أخبار؛ منها ما روى سلمان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباطُ يوم وليلة في سبيل الله خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات جَرَى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأَمِن الفتَّان». رواه مسلم[2].

وعن فَضَالَة بن عُبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ ميت يُختم على عمله، إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمَّن من فتَّان القبر». رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح[3].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه، أنه قال على المنبر: إني كنتُ كتمتكم حديثا سمعتُه من رسول الله ﷺ كراهية تفرُّقكم عني، ثم بدا لي أن أحدثكموه، ليختار امرؤ منكم لنفسه، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم في سبيل

---

(١) الفتح (٧/ ٤٧٦، ٤٧٧).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٣)، والترمذي (١٦٦٥)، والنسائي (٣١٦٧)، كلاهما في الجهاد، عن سلمان.

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٣٩٥١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١)، وقال: حديث حسن صحيح، كلاهما في الجهاد، عن فَضَالَة بن عُبيد.

الله، خـيـر من ألف يوم فـيـمـا سـواه من المـنازل». رواه أبوداود، والأثرم، وغيرهما[1].

أقل الرباط وتمامه:

إذا ثبت هذا؛ فإن الرباط يقلُّ ويكثُر، فكل مدَّة أقامـها بنيَّة الرباط، فهو رباط، قلَّ أو كثـر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «رباط يوم»، و«رباط ليلة». قال أحـمد: يوم رباط، وليلة رباط، وساعة رباط. وقال: عن أبي هريرة: «مَن رابط يوما في سبيل الله، كُتب له أجر الصائم والقائم، ومَن زاد زاده الله»[2].

وروى سعيد بن منصور بإسناده، عن عطاء الخُراساني، عن أبي هريرة قال: رباط يوم في سبيل اللـه، أحبُّ إليَّ من أن أوافق ليلة القدر في أحد المسجـدين: المسجد الحرام، أو مسجد رسول الله ﷺ، ومَن رابط أربعين يومًا فقد استكمل الرباط[3].

وتمام الرباط أربعون يومًـا. روي ذلك عن أبي هريرة، وابن عمر، وقـد ذكرنا خبر أبي هريرة. وروى أبو الشيخ، في كتاب (الثواب)، بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «تمام الرباط أربعون يوما»[4].

وروى عن نافع، عن ابن عمر، أنه قدم على عمر بن الخطاب من الرباط، فقال له: كم رابطت؟ قال: ثلاثين يومًـا. قال: عزمتُ عليك إلا رجـعتَ حتى تتمَّـها أربعين يوما[5].

وإن رابط أكثر، فله أجره، كما قال أبو هريرة: ومَن زاد، زاده الله.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤٤٢)، وقـال مخرِّجوه: إسناده حسـن، رجالـه ثـقـات رجـال الصحيح، غير أبي صالح مولى عثمان، والترمذي (١٦٦٧)، وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي (٣١٦٩)، كلاهما في الجهاد، عن عـثمان، وحسنه الألبـاني في صحيح النسائي (٢٩٧١)، واعـتذر عن تضعيـفه جدًا في تخريجه للترمذي، واستغفر الله من ذلك (١٧٤٣)، ولم يروه أبو داود كما ذكر ابن قدامة.

(٢) أورد السيوطي نحوه عن غير أبي هريرة. انظر: الجامع الكبير (١/ ٧٧٩).

(٣) سبق تخريجه صـ ٥١٦.

(٤) رواه الطبراني فـي الكبير (٨/ ١٣٣)، وفي مـسند الشامـيين (٤/ ٣٢٣)، وقال في مـجمع الزوائد: رواه الطبراني وفـيه أيوب بن مُدرِك وهـو متروك (٥/ ٥٢٨)، عن أبي أمـامة، وضعـفه الألباني في ضـعيف الجامع (٢٤٨٠).

(٥) رواه عبد الرزاق في الجهاد (٥/ ٢٨٠) برقم (٩٦١٥)، بلفظ: جاء رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب فقال: أين كنت؟ قال في الرباط . . .

أفضل الرباط الإقامة بأشدّ الثغور خوفا:

وأفضل الرباط المُقام بأشدِّ الثغور خوفًا؛ لأنهم أحوج، ومقامه به أنفع.

وهذا يختلف من عصر لآخر، ومن حال لأخرى، فمن البلاد ما يكون مخُوفًا مُهدَّدًا من جيرانه الكفار، فيسلم هؤلاء الكفار، وتدخل بلادهم في أرض الإسلام، فيصبح البلد المخُوف آمنًا، وينتقل الخوف إلى مكان آخر.

الرباط في الشام:

ولهذا كانت الإقامة في الشام في عصر الإمام أحمد: رباط من أفضل الرباط، لأنها كانت مُهدَّدة من الدولة الرومية البيزنطية، فلما دخلت هذه الدولة في الإسلام تغيَّر الحال. يقول ابن قدامة في (المغني):

(قال أحمد: أفضل الرباط أشدُّهم كَلَبًا. وقيل لأبي عبد الله: فأين أحبُّ إليك أن ينزل الرجل بأهله؟ قال: كلُّ مدينة معقِل للمسلمين، مثل دمشق. وقال: أرض الشام أرض المحشر، ودمشق موضع يجتمع إليه الناس إذا غلبت الروم. قيل لأبي عبد الله: فهذه الأحاديث التي جاءت: «إن الله تكفَّل لي بالشام»[1]. ونحو هذا؟ قال: ما أكثر ما جاء فيه. وقيل له: إنَّ هذا في الثغور، فأنكره، وقال: أرض القدس أين هي؟ «ولا يزال أهل الغرب ظاهرين». هم أهل الشام. ففسَّر أحمد الغرب في هذا الحديث بالشام، وهو حديث صحيح، رواه مسلم[2]، وإنما فسَّره بذلك؛ لأن الشام يُسمَّى مغربًا، لأنه مغرب للعراق كما يُسمَّى العراق

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٠٣٥٦)، وقال مُخرِّجوه: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، غير محمد بن راشد، وهو المكحولي، فقد روى له أصحاب السنن. وأبو داود في الجهاد (٢٤٨٣)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٦٧٣٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ١٧٢)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/ ٥١٠)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/ ١٧٩)، عن عبد الله بن حَوَالَة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، غير صالح بن رستم وهو ثقة (١٠/ ٣٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٦٩).

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٥)، والبزار في المسند (٤/ ٥٧)، وأبو يعلى في المسند (٢/ ١١٨)، عن سعد ابن أبي وقاص. واختلفوا في المراد بالغرب في الحديث، فقال معاذ: هم بالشام. وقيل: هم أهل الشام وما وراء ذلك. وجاء في حديث آخر: هم ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس. وقيل في تفسيره غير ذلك.

مشرقًا، ولهذا قيل: ولأهل المشرق ذات عِرْق. وقد جاء في حديث مصرِّحا به: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحَقِّ لا يضرُّهم مَنْ خذلهم، حتى يأتي أمر الله، وهم بالشام». وفي حديث، عن مالك بن يُخَامِر، عن معاذ بن جبل، قال: «وهم بالشام». رواه البخاري في صحيحه[1]. وفي خبر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة بدمشق ظاهرين». أخرجه البخاري في (التاريخ)[2]. وقد رُويت في الشام أخبار كثيرة، منها حديث عبد الله بن حَوَالَة الأزدي، أن النبي ﷺ قال: «ستُجنَّدون أجنادًا: جندًا بالشام، وجندًا بالعراق، وجندًا باليمن» فقلتُ: خِرْ لي يا رسول الله. قال: «عليك بالشام، خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فمَن أبى فليلحق باليمن، ويسقى من غُدُره (أي من أحواضه)، فإنَّ الله تكفَّل لي بالشام وأهله». رواه أبو داود بمعناه[3] انتهى.

الإقامة ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس:

قلت: وأعتقد أن القدس أرض الإسراء والمعراج وأرض فلسطين كلها: داخلة في مُسمَّى الشام، والمرابطة فيها - ولا سيما في عصرنا - من أفضل القُرُبات إلى الله، لأنهم يتعرَّضون لأخطار هائلة لا يتعرَّض لها غيرهم، من قتل للأنفس، واعتقال للشخصيَّات، وسَوْق إلى السجون والمعتقلات، وتدمير للمنازل، وتحريق للمزارع، واقتلاع للأشجار، وامتهان للمُقدَّسات، ونزع للملكيَّات، وانتهاك للحُرُمات، وبناء للجدار العازل. فلا غرو أن يكون أجر المرابط فيها أكثر وأعظم من غيره. وقد روى عبد الله بن أحمد وجادةً عن أبيه، والطبراني، عن أبي أمامة الباهلي، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرُّهم مَن خالفهم - إلا ما أصابهم من لأواء - حتى يأتي

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، عن معاوية، وفيه: قال عمير: فقال مالك بن يخامر: قال معاذ: «وهم بالشام». فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: «وهم بالشام».

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٥/ ٣٧٢).

(٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة، وفي الحديث نصيحة خاصة لهذا الصحابي وليس مطلوبًا من كل المسلمين أن يرحلوا إلى الشام.

أمر الله، وهم كذلك». قالوا: وأين هم، يا رسول الله؟ قال: «ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»[1].

ومما لا ريب فيه: أن فلسطين كلَّها من أكناف بيت المقدس، بل الشام كلُّها - الأردن وسورية ولبنان - من أكناف بيت المقدس، بل أحسب أن مصر أيضًا من أكناف بيت المقدس.

دلالة حديث عثمان:

أورد ابن النحاس في كتابه (مشارع الأشواق) في فضائل الجهاد: حديث عثمان رضي الله عنه: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل، فليختر كل امرئ لنفسه ما شاء»[2].

قال ابن النحاس: (وفي حديث عثمان هذا: دليل واضح على أن إقامة المرابط يومًا واحدًا بأرض الرباط: أفضل من الإقامة ألف يوم في غيره من الأماكن، سواء كان مكة أو المدينة، أو بيت المقدس. ولهذا خاف عثمان رضي الله عنه أن يتفرَّق الناس عنه إذا أعلمهم بذلك، رغبة في الرباط والإقامة ببلاده، ولولا أنه يعلم أن ذلك يعمُّ مكة والمدينة لما خاف تفرُّقهم وخروجهم من المدينة إلى بلاد الرباط.

وقد خرَّج ابن عساكر من طريق زيد بن جَبيرة - وهو متروك - عن يحيى ابن سعيد، عن أنس رضي الله عنه، قال: وحُدِّثت عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ليوم أحدكم في سبيل الله خير من ألف يوم في أحد المسجدين: المسجد الحرام، ومسجد المدينة»[3].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٢٣٢٠)، وقال مُخرِّجوه: حديث صحيح لغيره، دون قوله: قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ ... إلخ، وهذا إسناد ضعيف لجهالة عمرو بن عبد الله السيباني الحضرمي، فقد تفرد بالرواية عنه: يحيى بن أبي عمرو السيباني، ولم يوثقه غير ابن حبان والعجلي ... وأطالوا في التخريج فلينظر، والطبراني في الكبير (٨/ ١٤٥)، وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٧)، عن أبي أمامة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه عبد الله وجادة عن خط أبيه، والطبراني ورجاله ثقات (٧/ ٥٦٤).

(٢) رواه أحمد عن عثمان، وقد سبق تخريجه صـ ٥١٩ .

(٣) رواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٠٣)، وقال: وهذا لا أعلم يرويه عن زيد بن جبيرة غير ابن حمير، ولزيد بن جبيرة غير ما ذكرت من الحديث، وليس بالكثير وعامة ما يرويه عن مَن روى عنهم لا يتابعه عليه أحد اهـ. والحديث ضعيف، بل ضعيف جدًّا؛ لأن في رواته متروكًا وهو زيد بن جبيرة.

نزول جملة من الصحابة والتابعين بساحل الشام مرابطين:

قال ابن النحاس: وقد خرج من مكة والمدينة من الصحابة والتابعين وتابعيهم خَلق لا يعلمهم إلا الله، ونزلوا بساحل الشام مرابطين إلى أن ماتوا أو أكرمهم الله بالشهادة.

وروى ابن المبارك: أن الحارث بن هشام رضي الله عنه - قال المؤلف: وهو أخو أبي جهل لأبويه - خرج من مكة للجهاد، فجزع أهل مكة جزعًا شديدًا، فلم يُر أحد طَعِم إلا خرج يُشيعه، فلما كان بأعلى البطحاء، وقف ووقف الناس حوله يبكون، فلما رأى جزعهم رقَّ، فبكى، وقال: يا أيها الناس، إني والله ما خرجت رغبةً بنفسي عن أنفسكم، ولا اختيار بلد عن بلدكم، ولكن كان هذا الأمر (يعني: الإسلام)، فخرجت رجال، والله ما كانوا من ذوي أنسابها ولا في بيوتاتها، فأصبحنا - والله - لو أن جبال مكة ذهبًا فأنفقناها في سبيل الله ما أدركنا يوما من أيامهم، والله لئن فاتونا في الدنيا لنلتمسنَّ أن نشاركهم به في الآخرة، ولكنها النُّقلَة إلى الله عز وجل . . . وتوجَّه إلى الشام فأصيب شهيدًا[1].

قال ابن الأثير في الصحابة: خرج إلى الشام مجاهدًا بأهله وماله حتى استشهد يوم اليرموك[2] انتهى.

وذكر أبو الحجَّاج المِزِّي الحافظ في تهذيب الكمال: أن الحارث هذا شهد بدرًا وأُحدًا مشركًا، وأسلم يوم الفتح، وكان شريفًا كبير القدر.

وقال مصعب بن عبد الله: خرج الحارث بن هشام مع أهله إلى الشام، فتبعه أهل مكة يبكون، فرقَّ وبكى، ثم قال: أما لو كنا دارًا بدار، وجارًا بجار، ما أردنا بكم بدلاً، ولكنها النُّقلَة إلى الله عزَّ وجلَّ، فلم يزل حابسًا نفسه ومن معه بالشام مجاهدًا، حتى ختم الله له بخير)[3] انتهى.

قلت: وكانت الشام في ذلك الوقت تعتبر من الثغور، التي تحتاج إلى حُرَّاس ومرابطين؛ فقد كانت متاخمة لدولة الروم البيزنطية، والتي كانت تناوش المسلمين وتهدِّدهم باستمرار.

---

(١) رواه ابن المبارك في الجهاد (١٠١)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/ ٢٨٧)، وسكت عنه هو والذهبي، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١١/ ٤٩٩).

(٢) أسد الغابة في تمييز الصحابة (١/ ٤٢١) طبعة الشعب. مصر.

(٣) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق (١/ ٣٨٤ - ٣٨٦).

وتقدم قبله قصة إبراهيم اليَمَاني مع الثوري، وأمره له أن ينزل بسواحل الشام، ويترك ما عزم عليه من النزول إلى (جدة) والحجِّ في كل عام، والعمرة في كل شهر، ونحو ذلك[1]. وكذلك قصة بلال، وخروجه من مدينة النبي ﷺ إلى الشام بنية الجهاد، وقوله لأبي بكر رضي الله عنه: إن كنتَ أعتقتني لنفسك فامنعني، وإن كنتَ أعتقتني لوجه الله، فدَعني[2].

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إجماع العلماء على أن إقامة الرجل بأرض الرباط مرابطًا: أفضل من إقامته بمكة والمدينة، وبيت المقدس[3].

وحكى ابن المنذر في الأوسط، عن الإمام أحمد بن حنبل، أنه سئل: المُقام بمكة أحبُّ إليك أم الرباط؟ قال: الرباط أحبُّ إليَّ.

وقال أحمد أيضًا: ليس يعدل عندنا شيء من الأعمال الغزو والرباط[4] انتهى.

وقد سأل رجل الإمام مالكًا رحمه الله: أيهما أحبُّ إليك: أقيم بالمدينة الشريفة، أو أقيم بالإسكندرية؟ فقال: بل أقِم بالإسكندرية.

ومنها: أن صلاة المرابط بأرض الرباط مضاعفة، وكذلك صومه وذكره، وقراءته، ونفقته، ولا شكَّ أن المرابط مثل المجاهد، كلاهما في سبيل الله[5].

---

(١) حدثنا إبراهيم اليماني قال: قدمتُ من اليمن فأتيتُ سفيان الثوري، فقلتُ: يا أبا عبد الله، إني جعلت في نفسي أن أنزل جُدَّة فأرابط بها كلَّ سنة، وأعتمر في كل شهر عمرة، وأحج في كل سنة حَجَّة، وأقرب من أهلي، أحب إليك أم آتي الشام؟ فقال لي: يا أخا اليمن، عليك بسواحل الشام، عليك بسواحل الشام، فإن هذا البيت يحجه في كلِّ عام مائة ألف ومائة ألف، وثلاثمائة ألف، وما شاء الله من التضعيف، لك مثل حجِّهم وعمرتهم ومناسكهم. انظر: تاريخ دمشق (١/ ٢٨٤).

(٢) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٥٥)، وابن أبي شيبة في الفضائل (٢ ٠ ٣٣٠)، والطبراني في الكبير (١/ ٣٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٥٠)، عن بلال.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥) الطبعة المغربية.

(٤) انظر: المغني (١٣/ ٢٣)

(٥) انظر: مشارع الأشواق (١/ ٣٨٤ - ٣٨٧).

نقل النساء والذريّة إلى الثغور:

قال ابن قدامة: ومذهب أبي عبد الله (يعني: أحمد بن حنبل): كراهة نقل النساء والذرية إلى الثغور المَخُوفة. وهو قول الحسن، والأوزاعي؛ لما روى يزيد ابن عبد الله، قال: قال عمر: لا تنزلوا المسلمين ضفة البحر. رواه الأثرم بإسناده[1].

ولأن الثغور المَخُوفة لا يُؤمن ظفر العدو بها، وبمَن فيها، واستيلاؤهم على الذرية والنساء.

قيل لأبي عبد الله: فتخاف على المتنقل بعياله الإثم؟ قال: كيف لا أخاف الإثم، وهو يُعرِّض ذرِّيته للمشركين؟ وقال: كنتُ آمر بالتحوُّل بالأهل والعيال إلى الشام قبل اليوم، فأنا أنهى عنه الآن؛ لأن الأمر قد اقترب. وقال: لا بد لهؤلاء القوم من يوم. قيل: فذلك في آخر الزمان. قال: فهذا آخر الزمان. قيل: فالنبي ﷺ كان يُقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها. قال: هذا الواحدة، ليس الذرية.

قال ابن قدامة: وهذا من كلام أحمد محمول على أن غير أهل الثغر لا يستحبُّ لهم الانتقال بأهلهم إلى ثَغْر مَخُوف، فأما أهل الثغر فلا بد لهم من السكنى بأهلهم، ولولا ذلك لخَرِبت الثغور وتَعَطَّلت. وخصَّ الثغور المَخُوفة، بدليل أنه اختار سكنى دمشق ونحوها، مع كونها ثغرًا؛ لأن الغالب سلامتها، وسلامة أهلها[2].

***

(١) لم أجده، وقريب منه ما رواه عبد الرزاق في الجهاد (٥/ ٢٨٤) برقم (٩٦٢٥)، عن ابن المسيب، قال بعث عمر بن الخطاب علقمة بن مُجَزِّز في أناس إلى الحبشة، فأصيبوا في البحر، فحلف عمر بالله: لا يحمل فيها أبدًا.

(٢) المغني لابن قدامة (١٣/ ٢٣).

الفصل الثالث

خطر القعود عن الجهاد

التحذير من خطر القعود عن الجهاد الواجب:

ومما يجب التنبيه عليه، ولفت الأنظار إليه، والتحذير منه: خطر القعود عن الجهاد الواجب، وفشوُّ التقاعس عنه بين القادرين عليه. وانتشار الشحِّ الهالع، والجبن الخالع، وفقدان روح الجهاد، ونيَّة الجهاد في الأمة، وشيوع روح الميوعة والطراوة بين أبنائها وشبابها، وانتشار أخلاق الفردية والأنانية، وحُبِّ الدنيا، وحبِّ الذات، وانكباب كلِّ شخص على مصالحه وشؤونه الخاصَّة، وإهمال شأن الأمة. فهذا كله يُجَسِّد خطرًا على الأمة: خطرًا على أفرادها، وخطرًا على مجموعها، حيث تثَّاقل إلى الأرض، ويغلب عليها الجبن والخَور، والركون إلى الدنيا، وكراهية الموت، والحرص على الحياة، والرضا بحياة الذلِّ والهوان.

وهذه الأخلاق هي التي ذمَّ الله بها بني إسرائيل قديمًا حين قال: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ**﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ**﴾ [الحشر: ١٤]، وقال: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا**﴾ [آل عمران: ١١١، ١١٢].

وضرب لنا القرآن مثلاً حيًّا لجبنهم وخورهم وتقاعسهم عن الجهاد مع نبيهم الذي أنقذهم الله على يديه ـ موسى عليه السلام ـ حين قال لهم: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [المائدة: ٢١-٢٥].

أربعون سنة يتيهون في صحراء سيناء، لا يستطيعون دخول الأرض المقدسة، عقوبةً من الله لهم على تقاعسهم، حتى ينشأ في هذه السنين جيل جديد قادر على الإقدام والاقتحام.

فرغم أن سيدنا موسى قال لهم: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي: كتب لكم دخولها، كان يكفي هذا الوعد الذي تلاه عليهم موسى دافعًا لخوضهم المعركة، ورغم تخويفهم من الارتداد على أدبارهم، ورغم تشجيع الرجلين المؤمنين لهما: أن ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾. رغم هذا كلِّه أصرُّوا على الجُبْن والقعود، وقالوا بصريح العبارة: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

وهي عبارةٌ تدلُّ على منتهى الخسَّة والهوان، ومنتهى السفالة والوقاحة؛ فقد قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾، كأنه ربُّه وحده وليس ربُّهم. وقالوا بكلِّ نذالة: ﴿فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾! فلم يَسَع موسى إلا أن يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي﴾، فهؤلاء القوم أجسامهم معه، وقلوبهم ليست معه، فهو لا يملكهم، ولا يملك من أمرهم شيئًا، وقد سمَّاهم: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فكان الجواب الإلهي له: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

أين هؤلاء من أصحاب محمد ﷺ الذين قالوا له يوم بدر: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون[1]. وقالوا: والله لو استعرضتَ بنا البحر فَخُضْته لخُضْناه معك ما تَخَلَّف منا رجل واحد[2]؟

وقصَّ علينا القرآن قصة أخرى لبني إسرائيل تخلَّفوا فيها - إلا قليلاً منهم - عن الجهاد، وقد كتب عليهم، وهم الذين طلبوه من نبيهم بعد أن أُخرجوا من

(١) روى البخاري في المغازي (٣٩٥٢)، قال ابن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحبُّ إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي ﷺ، أشرق وجهه وسرَّه.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٦)، والبداية والنهاية (٢/ ٣٩٥).

ديارهم وأبنائهم، فهو جهـاد تحرير ودفاع عن الأرض والعرض: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

حثُّ القرآن على الجهاد والتَّحذير من تركه:

حثَّ القرآن الكريم على الجهاد، وشدَّد فيه، وبيَّن مقامه من الإيمان ومنزلته في الإسلام، وذلك بأساليب شتَّى:

فتارة يُبيِّن منزلته من الإيمان، كما في قـوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وتارة يأمر به أمرًا صريحًـا، كما يأمر بعبادة الله وتقواه، كـما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

وقوله سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

وأحيانًا يأمر بأشياء هي من الـمُعينات على الجهاد، وأسباب النصر فيه، كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأحيانًا أخرى يُحرِّض على الجهاد والقتال بأسلوب قوي يستثير الهمم، ويحفز العزائم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وتارة يُرغِّب المؤمنين في الجهاد بما ربط الله به من أطيب الثمرات، وأحسن المثوبة في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

ومن ذلك تذكيرهم بما أعدَّ الله للمجاهدين على كلِّ عمل أو جهد يبذلونه، أو مشقَّة يعانونها ما دام ذلك في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

ومن هنا حذَّر القرآن الكريم والسنة النبويَّة من خطر القعود عن الجهاد إذا وجب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

وحملت سورة التوبة حملة شعواء على (المنافقين) الذين قعدوا عن الجهاد الواجب بأعذار واهية، وتعلاَّت مكذوبة، وكشفت آيات السورة سرَّهم، وفضحت

سترهم، حتى سُمِّيت (الفاضحة)، ولا سيما مع دعوة الرسول لهم واستنفارهم إلى الجهاد معه، وذلك في غزوة تبوك التي كان سيواجه فيها أكبر قوَّة في العالم يومئذ، وهي دولة الروم.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]، وفي هذا السياق جاء قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

ويحمل على المنافقين بقوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

وعقَّب على استئذانهم رسول الله في التخلُّف عن غزوة تبوك، فقال: ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

وفي نفس السورة: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

وفي السورة يقول أيضًا: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

وقال تعالى في مفاصلة حاسمة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال ابن النحاس: (في هذه الآية الشريفة من التهديد والتحذير والتخويف لمَن ترك الجهاد - رغبةً عنه، وسكونًا إلى ما هو فيه من الأهل والمال - ما فيه كفاية، فاعتبروا يا أُولي الأبصار)[1].

تحذير السنة من ترك الجهاد:

وفي السُّنَّة النبوية نجد أحاديث كثيرة تنعي على الأمة أفرادًا وجماعات إذا هي أهملت أمر الجهاد، وتَخَلَّفت عنه، وعن الإعداد والاستعداد له ماديًّا ومعنويًّا، عسكريًّا واقتصاديًّا، اجتماعيًّا وثقافيًّا.

وأول ما ينبغي الاهتمام به: اصطحاب نية الجهاد عند الدعوة إليه، أو حضور أسبابه الموجبة له. وفي هذا جاء الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن مات ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّث به نفسه: مات على شعبة من النفاق»[2].

وقد ذكر الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» جملة أحاديث في الترهيب من ترك الجهاد، منها:

١- ما أورده عن أبي عمران[3] قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر؛ وعلى أهل مصر عقبة بن عامر رضي الله عنه، وعلى الجماعة فَضَالَة بن عُبَيْد رضي الله عنه، فحمل رجل من المسلمين على صفِّ الروم حتى دخل بينهم، فصاح الناس، وقالوا: سبحان الله! يُلقي بيده إلى التهلكة.

---

(١) مشارع الأشواق (١/ ١٠٤).

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة، وقد سبق تخريجه صـ٨٣.

(٣) هو أبو عِمران التُّجِيبي المصري، واسمه أسلم بن يزيد من ثقات التابعين.

فقام أبو أيوب، فقال: أيها الناس إنكم لتؤوِّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله ﷺ: إنَّ أموالنا قد ضاعت، وإن الله تعالى قد أعزَّ الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، وأصلحنا ما ضاع منها؛ فأنزل الله تعالى على نبيِّه ﷺ ما يردُّ علينا ما قلنا: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة: ١٩٥]. وكانت التهلكةُ الإقامةَ على الأموال وإصلاحها، وتَرْكَنا الغزو[١]، فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم[٢] رواه الترمذي وقال: حديث غريب صحيح[٣].

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعِينة[٤]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». رواه أبو داود، وغيره، من طريق إسحاق بن أُسيد نزيل مصر[٥].

---

(١) فليس من التهلكة إذن الأعمال الفدائية الجسُورة، التي يقوم بها الشجعان من المؤمنين، ويضعون فيها رؤوسهم على أكفِّهم، ويُعرِّضون أنفسهم لأشدِّ المخاطر، ولا يبالي أحدهم أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، بشرط أن يغلب على ظنِّه أنَّ في إقدامه خسارة على الكافرين، وإضعافًا لهم ماديًا أو معنويًا. ويكفي أن يكون ذلك سببًا لإلقاء الرعب في قلوبهم، وأن يكون في ذلك أيضًا نفع للمسلمين مادي أو معنوي، ويكفي أن يثير الحماس عندهم، ويقوي عزائم المتردِّدين منهم، ويضيء الأمل في قلوبهم. وهو ما يفعله شبابنا المؤمنون في (حماس) و(الجهاد) وغيرهما في فلسطين، وفَّقهم الله لإرعاب الصهاينة الغاصبين. للاستزادة في هذا الموضوع انظر ما كتبناه حول شرعية العمليات الاستشهادية في كتابنا: (فتاوى معاصرة) (٣/ ٥٠٣) وما بعدها. وسيأتي مزيد لهذا البحث في الباب التاسع من هذا الكتاب.

(٢) في مدينة استانبول قبر ومسجد وحي، تنسب إلى أبي أيوب رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥١٢)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٧٢)، وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (٦/ ٢٩٩)، وابن حبان في السير (٤٧١١)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٦)، والحاكم في الجهاد (٢/ ٨٤)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/ ٤٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٩٣).

(٤) العِينة: أن يبيع سلعة بثمن معلوم لأجل، ثم يشتريها منه نقدًا بأقل، ليبقى الكثير في ذمَّته. كأن يبيع سيارة بمائة وعشرين ألفًا بأجل، ثم يشتريها منه حالاً بمائة ألف، ويقبضها، ويبقى المبلغ المؤجل في ذمَّته. وكثيرًا ما تُتَّخذ حيلة لأخذ الربا، ويكون البيع فيها غير مقصود؛ إذ المقصود في الصورة التي ذكرناها: أن يقبض المائة في الحال، ويردَّها مائة وعشرين آجلاً.

(٥) رواه أحمد في المسند عن ابن عمر، وقد سبق تخريجه صـ٢٣٧ .

والحديث يشير إلى عدد من الرذائل إذا اجتمعت في الأمة، فقدت عزَّتها، وسُلِّط عليها غيرها: أكل الربا وإن أخذ صورة البيع، واهتمام كل فرد بشؤونه الخاصة، التي تتمثَّل في أخذ كلِّ واحد بذَنَب بقرته، وإهمال الصناعات، والاكتفاء بالزرع، وهو قصور في كفاية الأمة يُعرِّضها للخطر، وخصوصًا إذا انضاف إلى ذلك ترك الجهاد في سبيل الله.

وفي قوله: «حتى ترجعوا إلى دينكم»: دليل على أن ترك الجهاد والإعراض عنه، والركون إلى الدنيا، والتحايل على الربا، إلى آخر ما ذكر الحديث: خروج عن الدين الحقِّ، ومفارقة له، وكفى به إثمًا مبينًا.

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مات ولم يَغْزُ، ولم يُحَدِّث به نفسه، مات على شعبة من النفاق»[(١)]. رواه مسلم، وأبو داود والنسائي[(٢)].

٤- وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمَّهم الله بالعذاب». رواه الطبراني بإسناد حسن[(٣)].

ترك الجهاد عند تعيُّنه من الكبائر:

واعتبر علاَّمة متأخِّري الشافعية ابن حجر الهيتمي - في كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) - ترك الجهاد عند تعيُّنه مع القدرة عليه: كبيرة من الكبائر. يقول الهيتمي: (الكبيرة التسعون والحادية والثانية والتسعون بعد الثلثمائة: ترك الجهاد عند تعينه، بأن دخل الحربيون دار الإسلام، أو أخذوا مسلمًا وأمكن تخليصه

(١) أقلُّ ما يطلب من المسلم ليبرأ من النفاق ولا يموت على شعبة من شُعَبه: أن يكون أمر الجهاد مما يُهِمُّه ويخطر بباله، ويُحدِّث به نفسه، وإن لم يقدِّر له المشاركة العملية في الجهاد. أما أن يكون الجهاد بمعزل عن تفكيره واهتمامه بالكلية، ولا شغل له إلا بشؤونه الخاصة، فهذا هو الذي حذَّر منه الحديث الشريف.

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة، وقد سبق تخريجه صـ٨٣.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٣٨٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه علي بن سعيد الرازي، قال الدارقطني: ليس بذاك، وقال الذهبي: روى عنه الناس (٥/ ٥١٧). أقول: ويشهد للحديث قوله تعالى: ﴿**إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾ [التوبة: ٣٩].

منهم، وترك الناس الجهـاد من أصله، وتَرْكُ أهل الإقليم تحصين ثغـورهم؛ بحيث يُخاف عليها من استيلاء الكفار، بسبب ترك ذلك التحصين)[1].

واستدلَّ الهيتمي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، على تفسـير أنَّ التـهلكة - كما جـاء عن أبي أيوب الأنصاري - هي ترك الجـهاد والانشغال بإصلاح المال والزرع وغيرها.

كما اسـتدلَّ بما ذكرنا من الأحـاديث، ثم قال: (تنبيه: عـدُّ هذه الثلاثة ظاهر؛ لأن كل واحد منها يحـصل به من الفساد العائد على الإسـلام وأهله ما لا يُتدارك خرقـه، وعليهـا يحمل ما في هذه الآيـة والأحاديث من الوعيـد الشديد، فـتأمَّل ذلك، فإني لم أرَ أحدًا عرض لعدِّ ذلك؛ مع ظهوره)[2].

حديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»:

ومن الناس من يُهوِّن من أمر الجهاد - ولا سيمـا بعض المشتغلين بالتصوُّف غير الملتزم - بترويج حديث استندوا إليه، وعوَّلوا عليه، وشهروه بين أتباعهم، وهو أن النبي ﷺ قال بعـد رجوعه من إحدى الغـزوات: «رجعنا من الجهاد الأصـغر إلى الجهاد الأكبر: جهاد النفس»[3]!

الرد على من استدل بهذا الحديث في تهوين أمر الجهاد:

وردُّنا على مقولة هؤلاء من أربعة أوجه:

الوجه الأول:

أنَّ الحديث لم يصحَّ عن رسـول الله ﷺ بإجماع أئمة هذا الـشأن. ولا وجود لهذا الحـديث في كتب الـسنة ودواوينها المعـروفة من الصـحاح والسنن والمسـانيد والمعاجم.

قال الحافظ ابن حجر في (تسـديد القوس): هو مشهورٌ على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة[4].

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (٢/ ١٦٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) سبق تخريجه صـ ١٦٨.

(٤) انظر: كشف الخفا (٢/ ٣٤٥).

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخه بلفظ آخر عن جابر قال: قدم النبي ﷺ من غزاة له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قدمتم خير مَقدِم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر، يا رسول الله؟ قال: «مجاهدة العبد هواه»[1].

وفي سنده خلف بن محمد بن إسماعيل الخيام، قال الحاكم: سقط حديثه، وقال أبو يعلى الخليلي: خلط، وهو ضعيف جدًّا، روى متونًا لا تُعرف.

وقال الحاكم وابن أبي زرعة: كتبنا عنه الكثير، ونبرأ من عُهدته، وإنما كتبنا عنه للاعتبار[2].

وفيه - أيضًا - يحيى بن العلاء البَجَلي، قال الإمام أحمد عنه: كذَّاب يضع الحديث، وقال عمرو بن علي والنسائي والدارقطني: متروك الحديث، وقال ابن عدي: وأحاديثه موضوعة[3].

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (وأما الحديث الذي يرويه بعضهم، أنه قال في غزوة تبوك: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فلا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبيِّ ﷺ وأفعاله. وجهادُ الكفار من أعظم الأعمال، بل هو أفضل ما تطوَّع به الإنسان)[4] انتهى.

وروي عن إبراهيم بن أبي عبلة رحمه الله - وهو تابعي صغير ثقة - أنه كان يقول لمَن جاء من الغزوة: قد جئتم من الجهاد الأصغر، فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ جهاد القلب[5]!

قال الدارقطني: إبراهيم بن أبي عبلة، ثقة في نفسه، والطرق إليه ليست تصفو[6]، ومعنى هذا: أن نسبته إلى هذا العالم الكبير ليست صحيحة، ولو صحَّت فلا حُجَّة فيها، لأنها مقولة بشر غير معصوم.

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٦٨ .

(٢) ميزان الاعتدال (١/ ٦٦٢).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب (١١/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان صـ٤٤، ٤٥.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٤).

قال الشهيد حسن البنا في رسالته (الجهاد): (على أنه لو صحَّ، فليس يعطي أبدًا الانصراف عن الجهاد والاستعداد لإنقاذ بلاد المسلمين، وردِّ عادية أهل الكفر عنها، وإنما يكون معناه: وجوب مجاهدة النفس حتى تُخْلص لله في كلِّ عملها. فليعلم)[1] اهـ.

والوجه الثاني:

أنَّ الجهاد بمعنى القتال في سبيل الله لا يخلو من جهاد النفس، وأن النفس عادة تجنح إلى السلامة، وتُحبُّ الحياة، وترغب عن الموت، فلا بد للمؤمن الذي يختار طريق الجهاد: أن يقاوم نزعات نفسه، ولا سيما مع تثبيطات المثبِّطين من حوله، وشيوع الوَهْن في الأمة، وهو «حبُّ الدنيا وكراهية الموت»، كما فسَّره النبي ﷺ[2].

فعن سَبرَة بن الفَاكه رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام، فقال: تُسلم وتَذَر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، فتركه. فقعد له بطريق الهجرة، فقال له: تهاجر وتَذَر دارك وأرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد، وهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتُقتل، فتُنكح المرأة، ويُقسَم المال؟ فعصاه فجاهد»[3].

وحدَّثنا القرآن عن الملأ من بني إسرائيل كيف تولَّوا عن القتال عندما كُتب عليهم، مع أنه قتال دفع لا قتال طلب. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٦].

---

(١) من رسالة الجهاد للإمام البنا ضمن مجموع الرسائل صـ ٤٣٧.

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان، وقد سبق تخريجه صـ ٢٤.

(٣) رواه أحمد في المسند (١٥٩٥٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي، والنسائي (٣١٣٤)، وابن أبي شيبة (١٩٦٧٥)، كلاهما في الجهاد، وابن حبان في السير (١٠/ ٤٥٣)، والطبراني في الكبير (٧/ ١١٧)، والبيهقي في الشعب باب في الجهاد (٤/ ٢١)، عن سَبرَة بن الفَاكه.

هذا ما جاء عن بني إسرائيل. أما عن هذه الأمة فقد جاء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

وفرق ما بين هذه الأمة وبني إسرائيل: أنهم لما كتب عليهم القتال تولَّوا إلا قليلاً منهم. أما هذه الأمة، فلم يتولَّوا ولم يرفضوا، ولكن (فريقًا) منهم هو الذي أصبح يماحك ويجادل في أمر القتال، وسرعان ما استجابوا لنداء الإيمان، وحُجج القرآن.

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهذا خطاب عام للمسلمين عامة وللصحابة خاصة. ومع هذا قال: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى عن غزوة بدر: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

وهؤلاء فريق من المؤمنين - لا من المنافقين - خرجوا إلى بدر وهم كارهون، لأنهم لم يكونوا متهيئين للقتال.

وكل هذا يدلُّنا بوضوح على أنَّ الجهاد القتاليّ ليس بالأمر الهيِّن، بل يحتاج إلى مجاهدة نفسية، حتى ينشرح صدر المؤمن للقتال، ويقول: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾. وإنما هي إحدى الحُسنيين: النصر أو الجنة!

ولذا حدَّثنا القرآن عن ثِقَل الجهاد على المنافقين، حتى إنهم يحاولون الفرار منه بتعلاَّت، واعتذارات شتَّى، يردُّها الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ

بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

والوجه الثالث:

أننا لو سلَّمنا بصحة هذا الحديث جدلاً، لكان علينا - بمنطق الحديث نفسه - أن نبدأ بالجهاد الأصغر، متدرِّجين إلى الجهاد الأكبر، كما هي سنة الله في الأشياء والأمور كلِّها: البداية بالصغير انتهاء إلى الكبير.

وما دام القتال في سبيل الله وَفْق منطق الحديث هو الأصغر، فليكن البدء به. ولا يجوز تأخيره. ومنطوق الحديث المزعوم: أنه عليه الصلاة والسلام قاله، وهو راجع من الغزو والقتال.

الوجه الرابع:

أنَّ ما صحَّ عن رسول الله ﷺ قد بيَّن لنا: أن القتال في سبيل الله هو أعلى مراتب الجهاد.

فعن عمرو بن عَبَسَة أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «الهجرة». قال: وما الهجرة. قال: «أن تهجر السُّوء». قال: فأيُّ الهجرة أفضل؟ قال: «الجهاد». قال: وما الجهاد؟ قال: «أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم». قال: فأيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَن عُقِرَ جواده، وأُهريق دمه»[1].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٧ ـ ١٧٠)، وقال مُخرِّجوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه فمن رجال مسلم، إلا أن أبا قلابة - وهو عبد الله بن زيد الجرمي - لم يدرك عمرو بن عَبَسَة، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٤)، وعبد الرزاق في الجامع (١١/ ١٢٧) برقم (٢٠١٠٧)، وصحَّحه الألباني بشواهده في صحيح ابن ماجه (٢٢٥٣).

وعن عبد الله بن حُبْشِي الخَثْعَمي: أن النبيَّ ﷺ سُئل جملة من الأسئلة، كان منها: فأيُّ الهجرة أفضل؟ قال: «مَن هجر ما حرَّم الله». قيل: فأيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَنْ جاهد المشركين بنفسه وماله». قيل: فأيُّ القتل أشرف؟ قال: «مَنْ أُهريق دمه، وعُقِرَ جواده»[1].

فدلَّ هذان الحديثان على أن الجهاد الأفضل والأكبر هو: أن يجاهد الإنسان بنفسه وماله في سبيل الله. وأن أعلى مراتب الجهاد: أن يُسفك دمه في سبيل الله، ويُعقر جواده في سبيل الله، أي أنه ضحَّى بنفسه وماله جميعًا في سبيل الله.

***

(١) رواه أحمد في المسند (١ - ١٥٤)، وقال مُخرِّجوه: إسناده قوي، وأبو داود في الصلاة (١٤٤٩)، والنسائي في الزكاة (٢٥٢٦)، والدارمي في الصلاة (١٤٢٤)، والبيهقي في الكبرى كتاب الزكاة (٤/ ١٨٠)، عن عبد الله بن حُبْشِي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٨٦).

الفصل الرابع

استمرار الجهاد ونِحْلة القاديانيَّة

سياسة تجفيف المنابع:

ومما يجب التنبُّه له، والحذر والتحذير منه: ما يحاوله أعداء أمتنا: من تضليلها عن وِجهتها، وتثبيطها عن الجهاد، وإشاعة روح الهزيمة وروح القعود فيها، بوسائل مختلفة، وأساليب شتَّى، كلُّها تصبُّ في تخذيلها، وإماتة روح الجهاد فيها، لتستسلم لهم، وتقعد عن مقاومتهم، وتطهير أرضها من رجسهم، وتحرير رقبتها من نِيرهم. وأدهى من ذلك وأمرّ: أن يُصدِّقها بعض أبنائها والمنتسبين إليها، ويسيروا في ركابها، ويعملوا جاهدين لتحقيق أهدافها، من حيث يشعرون أو لا يشعرون!

ومن أهم هذه الوسائل والأساليب: ما سمَّوه سياسة (تجفيف المنابع)، ويعنون بها: مصادر التوجيه والتثقيف والتعليم للأمة، عن طريق مؤسسات التربية والتعليم، وعن طريق وسائل الثقافة والإعلام، بتفريغها من كلِّ معاني (الجهاد)، وما يشير إليه من قريب أو بعيد، وما يؤدِّي إليه أو ما يتَّصل به بنسب من العقائد والأخلاق والآداب والأحكام، أو من التاريخ ووقائعه.

ولهذا يعملون بجدٍّ ليُفرِّغوا المناهج التربوية والإعلامية من آيات الجهاد، وأحاديث الجهاد، ومن غزوات الرسول، ومن معارك الفتح الإسلامي، ومن الحديث عن أمثال خالد بن الوليد، وأبي عبيدة، وطارق بن زياد، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، ومحمد الفاتح، والأمير عبد القادر، وعمر المختار وأمثالهم من أبطال الإسلام.

بل يفرِّغون المناهج من كلِّ ما يتَّصل بغرس عزَّة النفس المؤمنة، وقوة الشخصية المسلمة، والتمسُّك بالحقِّ، ومقاومة الباطل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والغَيْرة على الحُرُمات، إلى آخر هذه الفضائل.

وقد ازداد هذا الأمر خطورة عندما أمست أمريكا اليوم تدسُّ أنفها في أخصِّ الشؤون الداخلية لأمة الإسلام، ومنها: التعليم والإعلام والثقافة، وتطلب بصراحة عجيبة: تغيير

مناهج تعليم الدين، حتى تنسجم مع فلسفتها وحضارتها. وهذا ما طلبته من السعودية وباكستان ومصر وغيرها. إنها تطلب منا أن نُربِّي أبناءنا كما تريد هي، لا كما نُريد نحن.

الحملة المشبوهة على الجهاد واعتباره نوعًا من الإرهاب:

ومن وسائلهم: الحملة المسمومة والمشبوهة على الجهاد الإسلامي، في لفظه ومعناه. واعتبار الجهاد المشروع بلا ريب ولا نزاع - لتحرير الأرض، ومقاومة المحتلِّ، ومقارعة الغاصب - نوعًا من (الإرهاب) الذي يجب أن يُجنَّد العالم كلُّه لحربه.

وهذا ما صنعته أمريكا وغيرها من القوى المعادية للإسلام، الخائفة منه، والكارهة له، والحاقدة عليه، والمتربِّصة به.

فهؤلاء يُؤيِّدون الكيان الصهيوني في قتل الولدان والنساء والشيوخ، وتدمير المنازل، وتحريق المزارع، وتخريب كلِّ عامر، واغتصاب الأرض بالجبروت، وإقامة المستوطنات عليها، وجَلْب المستوطنين لها من أنحاء الأرض، ويعتبرون ذلك حقّاً مشروعا لمدلَّلتهم (إسرائيل) على حين يعتبرون كل مقاومة فلسطينية إرهابًا وعنفًا وإفسادًا وتخريبًا.

ونتيجة للحملة التبشيرية (التنصيرية) والاستشراقية على الجهاد، والتخويف منه، حتى من (لفظة الجهاد) رأينا بعض مؤتمرات القمَّة الإسلامية توصي بحذف أو استبعاد كلمة (الجهاد) من قاموس السياسة في العالم الإسلامي.

ورأينا كثيراً من فصائل المقاومة الفلسطينية وغيرها، تستخدم مصطلحات أخرى غير الجهاد، مثل (النضال) أو (الكفاح المسلح) أو غيرها.

ولم تسمح أمريكا وحلفاؤها باستخدام كلمة (الجهاد) في الساحة الإسلامية، إلا عندما كانت هي في حاجة إلى ذلك، في حربها مع (الاتحاد السوفيتي) في أفغانستان، فلم تمنع من تعبئة الحشود، وتجنيد الجنود، وتجميع الجهود، تحت علم (الجهاد الإسلامي)، بل أيَّدت ذلك وآزرته، فلما تحقَّق هدفها، غيَّرت سياستها، وقلبت ظهر المجنِّ للمسلمين، وأصبح الذين كانوا بالأمس (مجاهدين) يسمَّون

اليوم (إرهابيين) و(مجـرمين)! وهم الذين قدموا لأمريكا خدمة مـجانية، لم تكن تستطيع أن تحقّقـها بمئات المليارات من الدولارات، وهي إضعاف الاتحـاد السوفيتي وزلزلة كِيانه، حتى انهزم، ثم انتهى إلى السقوط والزوال!!

خلْق النِّحَل الزائفة التي تنكر الجهاد:

ومن أعظم ما لجـأت إليه القوى الاستـعمارية الصليبـية المعادية للإسـلام وأمته خلال القـرن التاسع عشـر: خلق (نِحَل زائفة) بين المسلمين، تـشدُّ أزرها، وتسند ظهـرها، تشقُّ صفـوف المسلمين، وتثيـر الفتن بينهم، وتُروِّج معـتقـدات باطلة، وخصـوصًا ما كـان منها يرفض فريضـة الجهاد، ويقـاومه باسم الدين نفـسه حين تزعم: أن الجهاد كان مـشروعًا من قبل، ثم نسخ بظهور (النِّحلة الجـديدة) ونبيها الجديد المزعوم!!

القاديانية تبطل الجهاد وتوجب الطاعة للمستعمر:

وأبرز من يمثِّل ذلك: داعية (النِّحلة القاديانية) ومدَّعي (النبوة الجديدة)، المدعو (غلام أحمد) الذي كان أهمَّ ما جاء به في نِحلَته وديانته الـمُحدَثة المبتدعة أمران أساسيان:

١- الطاعة للحكومة، ولو كانت أجنبية كافرة.

٢- إبطال الجهاد، وإسقاط فرضيته.

ومن الوضوح بمكان: أن هذين الأمرين يصُبَّان في خدمة الاستعمار الإنجليزي، ونصرته؛ فطاعته مـشروعة بل واجبة، ومقـاومته ومجاهدته غير واجـبة، بل غير مشـروعة ولا مبـاحة أصلا. وبهـذا يعيش الاستـعمار في الهند وغـيرها من بلاد المسلمين آمنًا مطمئنًا مستريح البال، ما دام يُطاع ولا يُجاهد.

رسائل غلام أحمد في الطاعة للحكومة البريطانية وإسقاط الجهاد:

ورسائل (غلام أحـمد) مؤسِّس النِّحلة القاديانية تفـيض بالنصوص الغزيرة التي تتحدَّث عن كلا المبدأين السابقين.

يقـول في أحدها: (لقـد قضـيت معظم عـمري في تأييـد الحكومة الإنجليـزية ونصرتها، فقد ألفتُ في منع الجهاد ووجوب طاعة ولي الأمر (الإنجليز) من الكتب

والإعلانات والنشرات ما لو جُمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة! وقد نُشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وتركيا، وكان هدفي دائمًا أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة، وتُمحى من قلوبهم قصص المهدي السفاك، والمسيح السفاح، والأحكام التي تبعث فيهم (عاطفة الجهاد) وتفسد قلوب الحمقى)[1].

وإذا كان المسيح (سفّاحًا) فكيف ادَّعى بعد أنه (المسيح الموعود)؟!

ويقول في مقام آخر: (لقد نشرتُ خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلان في هذه البلاد وفي البلاد الإسلامية، تفيد أن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنَّة على المسلمين! فيجب على كلِّ مسلم أن يطيع هذه الحكومة إطاعة صادقة. وقد ألفتُ هذه الكتب باللغات الأردية والعربية والفارسية، وأذعتُها في أقطار العالم الإسلامي، حتى وصلت وذاعت في البلدين المقدسين مكة والمدينة، وفي الآستانة، وبلاد الشام ومصر، وأفغانستان؛ وكان نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن (فكرة الجهاد)، التي كانت من وحي العلماء الجامدين، وهذه مأثرة أتباهى بها! يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها)[2].

وقال في رسالة أخرى بكل تَبجُّح وصفاقة: (لقد ظللتُ منذ حداثة سني - وقد ناهزتُ اليوم الستين - أجاهدُ بلساني وقلمي، لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية، والنصح لها، والعطف عليها، وأُلغي فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جُهَّالهم، والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة. وأرى أن كتاباتي قد أثَّرت في قلوب المسلمين، وأحدثت تحوُّلا في مئات الآلاف منهم)[3].

وكذب عدو الله، سيظل الجهاد باقيًا ما بقي القرآن الكريم.

ويقول فضَّ الله فاه: (إنَّ مذهبي وعقيدتي التي أُكرِّرها: أنَّ الإسلام جزءان: الجزء الأول: إطاعة الله. والثاني: إطاعة الحكومة التي بسطت الأمن، وآوتنا في ظلِّها من الظالمين، وهي الحكومة البريطانية)[4].

---

(١) ترياق القلوب صـ٢٥ للقادياني.

(٢) ستارة قيصرة صـ٧ مكتوب القادياني إلى ملكة إنجلترا.

(٣) تبليغ رسالت (٧/ ١٠).

(٤) شهادة القرآن صـ ٨٦.

الحمد لله، هذا إسلام القادياني، وليس إسلام القرآن والسنة، ولا إسلام أمة محمد.

ويقول بصراحة عن الجهاد: (إنَّ الله خَفَّف شدَّة الجهاد - أي القتال في سبيل الله - بالتدريج، فكان يُقتل الأطفال في عهد موسى، وفي عهد محمد ﷺ أُلغي قتل الأطفال والشيوخ والنسوة، ثم في عهدي أُلغي حكم الجهاد أصلاً)[1].

ويقول في موضع آخر: (اليوم أُلغي حكم الجهاد بالسيف، ولا جهاد بعد هذا اليوم؛ فمَن يرفع بعد ذلك السلاح على الكفار، ويسمي نفسه غازيًا يكون مخالفًا لرسول الله الذي أعلن قبل ثلاثة عشر قرنًا بإلغاء الجهاد في زمن المسيح الموعود؛ فأنا المسيح الموعود، ولا جهاد بعد ظهوري الآن، فنحن نرفع علم الصلح، وراية الأمان)[2].

وكذب القادياني في قوله: إنَّ الرسول قبل ثلاثة عشر قرنًا ألغى الجهاد في زمن نزول المسيح في آخر الزمان، وهذا عكس ما ورد من أحاديث صحاح: إن المسيح سيقتل الدجال، ويقاتل الكفار حتى يدخلوا في الإسلام. وقد ذكرنا من قبل عددًا من الأحاديث الصحيحة التي تبنَّت استمرار الجهاد إلى يوم القيامة.

ويقول: (اتركوا الآن فكرة الجهاد؛ لأنَّ القتال للدين قد حرُم، وجاء الإمام والمسيح، ونزل نور من السماء، فلا جهاد، بل الذي يجاهد في سبيل الله الآن، فهو عدو الله، ومنكر للنبي، الذي يعتقد هذا)[3].

ويقول: (إنَّ هذه الفرقة القاديانية لا تزال تجتهد ليلاً ونهارًا لقلع العقيدة النجسة - عقيدة الجهاد - من قلوب المسلمين)[4].

وقال: (إنَّ الفرقة الإسلامية التي قلَّدني الله إمامتها وسيادتها، تمتاز بأنها لا ترى الجهاد بالسيف ولا تنتظره، بل إن الفرقة المباركة لا تستحلُّه سرًّا كان أو علانية، وتحرِّمه تحريما باتًّا)[5].

---

(١) الأربعين رقم (٤) صـ١٥.

(٢) خطبة إلهامية صـ ٢٨ تبليغ رسالت (٩/ ٤٧).

(٣) ترجمة أبيات أردوية ضميمة تحفة كولرويه صـ ٣٩.

(٤) عريضة القادياني إلى الحكومة المندرجة في مجلة (ريفيور آف ريليجنز) رقم (٥) ١٩٢٢م.

(٥) ترياق القلوب صـ٣٣٢.

وهكذا نرى التناقض الصريح بين القادياني والقرآن؛ يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ويقول القادياني: حُرِّم عليكم القتال، ولو كان للدفاع عن أوطانكم وحُرماتكم. وكذلك التناقض الصريح بين القادياني والرسول محمد ﷺ، فالرسول محمد يعتبر الجهاد ذروة سنام الإسلام، والقادياني يعتبر الإيمان به عقيدة نجسة!!

وقال: (قد كتبتُ مرارًا: أن القرآن لا يعلم تعليم الجهاد أبدًا، (يعني أنه مؤقَّت) بل كان هذا الحكم مُخْتصّاً بالزمان، وما كان إلى الأبد. والإسلام بريء عن الأعمال التي ظهرت عن الملوك بعد زمان النبوة، بخطئهم الصريح، أو بأغراضهم النفسانية)[1].

هذه أباطيل القادياني الذي لم يُخْفِ عمالته للاستعمار البريطاني، وخدمته طول عمره له، وإخلاصه لتثبيت أركان حكمه، عن طريق المبدأين اللذين جاءت بهما نِحلته أو نبوته المزعومة لتضليل المسلمين، وتذليلهم ليكونوا طوع الاستعمار وهما:

١- طاعة الحكومة الكافرة المستعمرة والإخلاص لها.

٢- إبطال فكرة الجهاد، والسعي لنزعها من قلوب المسلمين.

وقد زعم هذا المتنبئ الكذاب - الذي فاق كذبه كذب مسيلمة - أنه المسيح الموعود، بغير دليل ولا برهان، وأن رسول الله ﷺ أعلن قبل ثلاثة عشر قرنا بإلغاء الجهاد في زمن المسيح الموعود. وهذا كذب صُراح على رسول الله، الذي أعلن في أحاديثه الصحاح: أن المسيح سيحمل راية الجهاد، ولا يقبل إلا الإسلام أو السيف، ولا يقبل الجزية من أحد، وأن الله تعالى سينصره، حتى لا يبقى على وجه الأرض إلا مسلم.

ولا ريب أن الإنجليز المستعمرين قد قرَّت أعينهم بكلام هذا (النبي المزيف)، الذي سخَّر نفسه وقلمه وطائفته لخدمتهم، وسوَّد ألوف الصفحات للتمكين لهم من رقاب المسلمين. ولا غرو أن وفَّروا له (الحماية) اللازمة لمثله، والتأييد المادي

(١) ضميمة الحكومة الإنجليزية والجهاد صـ١٠، ١١، انظر: كتاب القادياني ومعتقداته للشيخ منظور أحمد صـ٣٠، ٣١، وكتاب القاديانية لإحسان إلهي ظهير صـ ١١٨ - ١٢٣ طبعة إدارة ترجمان السنة باكستان.

والمعنوي لتنفيق نحلته، ونشرها على أوسع نطاق ممكن تحت أسنَّة رماح الاستعمار.

هذا وقد وقف علماء المسلمين في الهند الكبرى التي تتمثَّل اليوم في: الهند وباكستان وبنجلاديش جميعًا، ضدَّ هذا القادياني المتنبئ الكذاب، وحكموا بكفره، وخروجه من الملَّة، وأيَّدهم في ذلك علماء العرب والأتراك وغيرهم.

ولا نزاع في أنَّ من ادَّعى النبوة بعد محمد، أو زعم أنه جاء بنسخ أحكام قطعية ثابتة من شريعته، مخالفًا المعلوم من الدين بالضرورة، فقد مرق من الإسلام، كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، فإذا فعل ذلك خدمةً للاستعمار وأهدافه، فقد جمع إلى خيانة الدين: خيانة الوطن والأمة، وبذلك عُدَّ خائنًا لله ولرسوله ولأمة الإسلام، عميلاً للكفرة الظالمين المستعمرين.

أدلة استمرار الجهاد إلى يوم القيامة:

ومن الضروري هنا: أن نُبيِّن أن الجهاد فريضة مُحكمة باقية إلى يوم القيامة، غير قابلة للنسخ، فإنَّ النسخ لا يكون بعد رسول الله ﷺ، وكلُّ حكم ثبت بالقرآن والسنة فهو باقٍ إلى يوم القيامة.

ومن المتَّفق عليه بين جميع المسلمين: أن الأصل في الأوامر والنواهي والأحكام الثابتة بالقرآن والسنة: ليس لها أمد مُحدَّد وتنتهي عنده، بل هي باقية إلى يوم القيامة، سواء في ذلك أحكام العبادات أم المعاملات، ومنها: ما يتعلَّق بالجهاد.

كل ما في الأمر: أنَّ الوسائل قد تتغيَّر، والأساليب قد تتطوَّر، ولكن تبقى الفكرة الأساسية محفوظة مرعيَّة.

الفكرة الأساسية في الجهاد: أن تبقى الأمة قويةً مرهوبةَ الجانب، بما تملك من قوة عسكرية مادية ملائمة لعصرها، وقوة بشرية مُدرَّبة، رادعة قادرة على ردِّ العدوان، وتأديب المعتدين، وتأمين الحرية للدعوة، وإنقاذ المستضعفين في الأرض، وليس من الضروري أن تغزو خصومها ما لم يغزوها، إلا أن نتعرَّض لخطر منهم فنتوقاه قبل أن يحدث، إذا قامت عليه الدلائل.

فكرة الجهاد: تتمثَّل في إعداد القوة للأمة من كلِّ ناحية، وإعداد المقاتلين الأكفَاء المدرَّبين، والتهيُّؤ لخوض المعركة إذا وُجدت موجباتها عند سماع نداء الجهاد.

ولا يجوز للأمة بحال: أن تسترخي وتلقي سلاحها، وتستسلم للدَعَة والقعود، اتِّكالا على وجود هيئات دَوْلية، كهيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن وغيرهما.

فقد ثبت أن الأقوياء هم الذين يحكمون العالم، وحتى مجلس الأمن فيه خمس دول تملك حق النقض (الفيتو)، أي الاعتراض على أي قرار، فيتعطَّل، وهو ما تفعله أمريكا باستمرار في أي قرار يدين إسرائيل.

قانون التدافع بين الناس:

والقرآن يعلمنا أن قانون التدافع بين الناس - لتضارب مصالحهم واتجاهاتهم - هو من السُّنن الإلهية الثابتة في الكون والاجتماع البشري، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [الحج: ٤٠]، فهذه السنة الكونية الإلهية تفيد أن الحرب من طبيعة الاجتماع البشري، حتى قال مَن قال: الإنسان حيوان محارب. وما دامت الحرب ضرورة فلا بد من الاستعداد لها بالتسلُّح المناسب، حتى نُرهب عدو الله وعدونا، ولا نغفل عن سلاحنا، فيتمكَّن منا عدونا: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

الكفار لن يكفُّوا عن المسلمين:

كما أنَّ القرآن يعلمنا أن الكفار لن يكفُّوا عنا أبدًا، يقول تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

بقاء الطائفة المنصورة:

ولا غرو أن بشَّرتنا الأحاديث النبوية الصحيحة بأن هناك طائفة يسمِّيها العلماء: (الطائفة المنصورة) ستظلُّ قائمةً على هذا الدين، مستمسكة بعروته الوثقى، مدافعة عن حِماه، مقاتلة في سبيله، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

روى مسلم في صحيحه، عن جابر بن سَمُرَة أن النبي ﷺ قال: «لن يبرح هذا الدين قائمًا، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة»(١).

وروى مسلم أيضًا، عن جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين إلى يوم القيامة»(٢).

وروى عن عُمَير بن هَانِئ قال: سمعتُ معاوية على المنبر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم مَن خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس»(٣). وفي رواية عنه: «لا تزال عصابة من المسلمين، يقاتلون على الحقِّ، ظاهرين على مَنْ ناوأهم، إلى يوم القيامة»(٤).

وروى مسلم أيضًا، عن عُقبة بن عامر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرُّهم مَن خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»(٥).

وروى أحمد وأبو داود والحاكم، عن عمران بن حُصَين أن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحقِّ، ظاهرين على مَنْ ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»(٦).

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٢)، وأحمد في المسند (٢٠٩٨٥)، عن جابر بن سَمُرَة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٥٦)، وأحمد في المسند (١٥١٢٧)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، كما رواه أحمد في المسند (١٦٩٣٢)، عن معاوية، واللفظ لمسلم.

(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٠٣٧)، وأحمد في المسند (١٦٨٤٩)، عن معاوية.

(٥) رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٤)، وابن حبان في التاريخ (٦٨٣٦)، عن عُقبة بن عامر.

(٦) رواه أحمد في المسند (١٩٨٥١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الجهاد (٢٤٨٤)، والطبراني في الكبير (١١٦/١٨)، والحاكم في الجهاد (٤/ ٤٥٠)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عمران بن حصين، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٧٠).

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، عن قُرَّة بن إياس، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرُّهم خُذلان مَن خذلهم، حتى تقوم الساعة»[1].

وقد صحَّ هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن عدد آخر من الصحابة منهم: عمر ابن الخطاب[2]، والمغيرة بن شعبة[3]، وثوبان[4]، وأبو هريرة[5]، وأبو أمامة الباهلي رضي الله عنهم جميعا.

حديث أبي أمامة الباهلي في الطائفة المرابطة ببيت المقدس:

ولعلَّ من الخير: أن نذكر هنا حديث أبي أمامة الباهلي، الذي رواه عبد الله ابن أحمد في المسند، قال: وجدتُه بخط أبي. ونصُّ الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوِّهم قاهرين، لا يضرُّهم مَن خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك!». قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»[6].

فهذه الطائفة المرابطة الصامدة، الجاهدة المجاهدة، التي وُصفت بأنها على الحقِّ ظاهرة، ولعدوها قاهرة، وأنها لا يضرُّها مَن خالفها ولا مَن خذلها، إلا ما أصابها

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٥٥٩٦)، وقال مُخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، غير صحابيه فقد أخرج له البخاري في الأدب المفرد وأصحاب السنن، والترمذي في الفتن (٢١٩٢)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (٦)، والطيالسي في المسند (١/ ١٤٥)، وابن حبان في العلم (٦١)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٧)، عن قُرَّة بن إياس، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦).

(٢) عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ حتى تقوم الساعة». رواه الطيالسي في المسند (١/ ٩)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/ ٤٤٩)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٣) عن المغيرة بن شعبة، عن النبي ﷺ: قال: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون». متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤٠)، ومسلم في الإمارة (١٩٢١).

(٤) عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرُّهم مَن خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٠)، وأحمد في المسند (٢٢٤٠٣)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٠).

(٥) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزال لهذا الأمر - أو على هذا الأمر - عصابة على الحقِّ، ولا يضرُّهم خلاف مَن خالفهم حتى يأتيهم أمر الله». رواه أحمد في المسند (٨٩٣٠)، وقال مُخرِّجوه: إسناده قوي، وابن ماجه في المقدمة (٧) بلفظ قريب، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٧).

(٦) رواه أحمد عن أبي أمامة وقد سبق تخريجه صـ ٥٢١ .

من لأواء، أي: من أذى وجراح في الطريق، حتى يأتي أمر الله، أي: حتى تقوم الساعة، وهم كذلك: ثابتون على العهد، صابرون في البأساء والضراء وحين البأس، وقد حدَّدت الأحاديث الشريفة مكانهم بالشام كما في حديث معاذ، وذكر في هذا الحديث حين سُئل عنهم بأنهم: «ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس».

إنها بشارة نبويَّة صدرت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا لإخواننا الأبطال من شعب فلسطين: إخوتنا في حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وإخوتنا في (الجهاد الإسلامي)، وفي (كتائب الأقصى)، وغيرهم من فصائل الجهاد والمقاومة في فلسطين.

بل إن «أكناف بيت المقدس»، يمكن أن تتَّسع في رأيي، لتشمل كلَّ أعوان الجهاد في فلسطين من بلاد الشام ومن مصر والعراق، فكلُّ هؤلاء يمكن أن ينطبق عليهم: أنهم من «أكناف بيت المقدس».

حديث: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» ودلالته على استمرار الجهاد:

ومن الأدلَّة على أن الجهاد باقٍ ومستمر إلى قيام الساعة: ما رواه الشيخان، عن ابن عمر[1] وعُروة البَارِقي من الصحابة، أن النبي ﷺ قال: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[2]، وفي بعض الروايات: «الأجر والمغنم»[3]، وهذا يدلُّ على أن المقصود بها: خيل الجهاد.

وهذه الأحاديث الصِّحاح تُغنينا عن حديث أنس بن مالك عند أبي داود وفيه: «والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جَورُ جائر، وعدل عادل»[4]، ففي إسناده ضعف، ولكن قد يُذكر استئناسًا.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٧١)، كما رواه أحمد في المسند (٤٦٦١)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٣)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٠)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٣)، كما رواه أحمد في المسند (١٩٣٥٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٤)، وابن ماجه في اتخاذ الماشية (٢٣٠٥)، عن عروة بن الجعد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٢)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٣)، كما رواه أحمد في المسند (١٩٣٥٥)، والترمذي في الجهاد (١٦٩٤)، والنسائي في الخيل (٣٥٧٥)، عن عروة بن الجعد.

(٤) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٣٢)، وسعيد بن منصور في من قال: الجهاد ماضٍ (٢/١٤٣)، وأبو يعلى في المسند (٧/٢٨٧)، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/١٥٦)، عن أنس، وفيه يزيد بن أبي نُشبَة، قال المنذري في مختصر السنن: هو في معنى المجهول (٣/ ٣٨٠)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٥٤٤).

الفصل الخامس

إعداد الأمَّة للجهاد

امتلاك أسباب القوة:

بيَّنا في الفصول السابقة أن الأمة المسلمة - كما يُوجِّهها كتاب ربها وسنة نبيها - أمة سلام لـمَنْ يسالمها، وأنَّ السلام هدف من أهداف الحياة الإسلامية، والرسالة الإسلامية، ولكن هذا لا يعني: أن تموت فكرة الجهاد لدى الأمة، وأن يسيطر عليها الوَهْن الذي يجعل الأمة فريسةً لأعدائها، فَتَتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأَكَلَة إلى قَصْعتها. والوَهْن يعني: حُبّ الدنيا وكراهية الموت.

كما أن انتشار فكرة السلام لا يعني: أن تُجَرَّد الأمة من أسباب القوة التي تُكسبها الحصانة من أطماع خصومها، وتجعلها مرهوبة من أعدائها، وتمنحها القدرة على تبليغ رسالتها، وتأمين الحرية لدعوتها.

ومن هنا كان الإسلام - رغم رغبته في السلام، ودعوته إلى السلام - يحرص كل الحرص على أن تظلَّ الأمة أمة جهاد، تمتلك أسباب القوة ماديًّا ومعنويًّا، لكي تحمي بها وجودها البشري والرسالي، وتمنع أي طامع فيها من العدوان عليها.

ومن أجل هذا كان واجبًا على الأمة أن تقوم بالإعداد اللازم لامتلاك القوة في كلٍّ جوانبها: القوة العسكرية، والقوة الاقتصادية، والقوة البشرية: المادية والفكرية والإيمانية والأخلاقية. وإعداد الأمة للجهاد الواجب، حتى تكون على أتمِّ الاستعداد لتلبية النداء، عندما يدعو الداعي: أن حيَّ على الجهاد.

١- الإعداد العسكري:

وأول هذا الإعداد: ما يُعرف بـ(الإعداد العسكري) وهو أول ما يتبادر إلى الذهن من كلمه (إعداد).

والإعداد العسكري يتطلَّب أمرين:

أ- إعداد المعدات والأسلحة:

الأول: إعداد الأجهزة والمعدَّات والآليَّات العسكرية، وهو ما أمر به القرآن الأمة أمرا صريحا في قول الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠].

وهذا الأمر يشمل إعداد كلِّ وسائل القوة العسكرية اللازمة لتحقيق الانتصار على العدو. ومنها: رباط الخيل، والمراد برباط الخيل: ربط خيول المجاهدين على الثغور ومنافذ البلاد التي يمكن أن يتسلَّل منها الأعداء.

وقد جاء عدد من الأحاديث الصحيحة تُنوِّه بما في إعداد الخيل للجهاد من أجر ومثوبةٍ عند الله.

وأقول هنا: إنَّ النصَّ على الخيل - باعتبارها وسيلة من وسائل القوة في العصور الماضية - لا يلزمنا بأن نقف عند هذه الوسيلة، فلكلِّ عصر خيله وفرسانه. ولهذا أعتبر أن خيل عصرنا هي: الدبابات والمصفَّحات والمجنزرات وغيرها من الآليَّات المقاتلة في البرِّ.

بل يشمل هذا: المعدات البحرية من السفن والبوارج الحربية والغواصات وغيرها، وهي من أهم آليات الحرب في عصرنا.

بل يشمل ذلك: الوسائل الجويَّة من الطائرات والأقمار الصناعية والصواريخ وغيرها. وقد أصبحت هذه المعدات أهم الوسائل وأعظمها خطرًا في عصرنا، وتطوَّرت إلى ما سَمَّوه (حرب النجوم).

وكما تطوَّرت المعدَّات والمركبات الحربية برًّا وبحرا وجوًّا، وتطوَّرت الأسلحة المستعملة في القتال كذلك. فقد كانوا قديمًا يستخدمون السيوف في ضرب الرقاب عند المواجهة والتقاء الصفين أو المقاتلين وجهًا لوجه، كما تستخدم الرماح والحراب في الطعن على مسافة قريبة، والقِسيُّ في الرمي من بعيدٍ بالسهام والنبال، كما عرَف الأقدمون استخدام (المنجنيق) في رمي المحاصرين بالقذائف والحجارة ونحوها.

وعرَف الناس قديمًا أدوات الوقاية أو الحماية من ضربات العدو، مثل الدروع والتروس والمغافر للأفراد، والقلاع والحصون والسراديب للجماعات. ومثل ذلك حفر الخنادق والأسوار لحماية المدن.

هذه الأسلحة القديمة تطوَّرت تطوُّرًا هائلاً، فلم يعُد المحاربون يستعملون السيوف - أو ما يسمُّونه السلاح الأبيض - إلا في مواقع محدودة، وظروف خاصة.

أصبح المقاتلون يستخدمون البنادق الآلية والمدافع الرشاشة المتنوعة، والقذائف أو القنابل، وهي أنواع وأوزان، والصواريخ، وهي أصناف وألوان، أيضًا. منها: أرض أرض، وأرض جو، وجو أرض، وجو جو، ومنها: الصواريخ عابرة القارات، والصواريخ المُضَادَّة للطائرات وللدبابات وللصواريخ، والصواريخ بعيدة المدى، والمتوسطة المدى، والقصيرة المدى . . . إلى آخره.

وهناك الأسلحة النووية التي استخدمتها أمريكا في نهاية الحرب العالمية الثانية ضد اليابان في (هيروشيما وناجازاكي).

حكم استخدام الأسلحة النووية:

وهذه الأسلحة تحتاج إلى بحث شرعي في حكم استخدامها: هل يجوز أو لا؟

ورأيي المبدئي: أنه لا يجوز استخدام هذه الأسلحة التي يمكن أن تقتل الملايين من البشر دفعة واحدة، وتُصيب ملايين آخرين بأضرار لا تُدرى عواقبها على مدى عشرات السنين. وقد حرَّم الإسلام قتل مَن لا يقاتل من النساء والصبيان والشيوخ الهرمين، والرهبان والفلاحين وأمثالهم، أي قتل الآحاد من هؤلاء، فكيف يجيز قتل الألوف والملايين برمية واحدة؟!!

ومع هذا أرى أنَّ أمة الإسلام يجب أن تمتلك هذه الأسلحة غير المشروعة، لتكون سلاح ردع وتخويف لأعدائها، وفرق بين استخدام هذه الأسلحة وامتلاكها، فإن امتلاكها ضروريّ لأمة مُعرَّضة للعدوان من القوى التي تعادي المسلمين، وقد أثبتت الوقائع أن امتلاك مثل هذه الأسلحة هو ضمان للسلم. وهذا ما رأيناه واقعًا بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، فلم تقُم بينهما حرب رغم الاختلاف الأيديولوجي، ورغم اختلاف المصالح والأهداف؛ لأن استخدام الأسلحة النووية إنما هو دمار للطرفين.

وهذا ما رأيناه أخيراً بين الهند وباكستان، رغم اشتداد التوتُّر في العَلاقات بينهما، إلى حدِّ التراشق وسقوط بعض القتلى من الجانبين، ولكن لأن كلاً منهما يملك السلاح النووي، جعل كليهما يحسب حساب النتائج أو العواقب، إذا قامت الحرب النووية بين الطرفين.

والذي نُقرِّره هنا من أحكام الشرع: أن الأمة الإسلامية يجب عليها وجوبًا قطعيًّا أن تعدَّ ما استطاعت من قوة لأعدائها. وكلمة (ما استطاعت) تعني: أن تبذل كلَّ ما في وُسعها وما تحتمله طاقاتها البشرية والمادية، من صناعة المعدات والأجهزة والأسلحة، وكل ما يَتطلَّبه الجانب العسكري، من أدوات الهجوم، ووسائل الوقاية، بحيث تتفوَّق على الأعداء، أو على الأقل نملك مثل ما يملكون، ولا يجوز أن نكون أدنى منهم، حتى لا نتعرَّض للخطر.

الأمة كلُّها مخاطبة بقوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾، وإن كان الذي ينفِّذ هذا الأمر هم أُولو الأمر فيها، وهذا هو الذي يُعبِّر عنه الفقهاء بـ(فرض الكفاية)، فمعنى فرض الكفاية: مسؤولية الأمة كلِّها، وأن البعض هو الذي عليه التنفيذ، وأنه إذا قام البعض بالفرض سقط الإثم عن باقي الأمة، وإلا أثِمت الأمة كلُّها، لأن الأصل: أن الخطاب لها مجتمعة.

فرض كفاية على الأمة: أن تكون لديها أسلحة متطورة توازي ما لدى الآخرين من أسلحة، إن لم تفقها. وأن تكون هذه الأسلحة من صنع يدها، ولا تعتمد على مُجرَّد شرائها من الآخرين، فإنَّ هذا يجعلها تحت رحمتهم، وقد لا يتيسَّر هذا في كلِّ وقت، وكثيراً ما يضنُّون علينا ببيع المتطوِّر والأحدث من الأسلحة، ولا يبيعوننا إلا القديم الذي ضَعُف أثره، وباتوا يستغنون عنه، ولا يخشون خطره عليهم إذا كان في أيدينا.

وهذا يُوجبُ على الأمة أن تُهيِّئ كلَّ ما يلزم لذلك من وسائل علمية وتكنولوجية وتفوُّق في العلوم الطبيعية والهندسية والرياضية، وأن تُنشئ من الجامعات العلمية والتقنية، ومراكز البحوث، وتُجنِّد الطاقات، وتُوفِّر المال، وتُهيِّئ المناخ الملائم، لكلِّ ما يلزم من صروح علمية وبحثية ضرورية لإنشاء القوة العسكرية المطلوبة.

وقد يلزم لذلك: أن نحيط هذا الأمر بالسريَّة، حتى لا تَتَسرَّب أخباره إلى الأعداء فيضربوه قبل أن يقوم، ففي الحديث: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»[1].

كلُّ هذا يعتبر من فروض الكفاية على الأمة عامةً وعلى أُولي الأمر منها خاصة، وَفْقًا للقاعدة الشرعية التي تقول: ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب. وقد جاء في الحديث: «إن الله يثيب في السهم الواحد ثلاثة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، ومنبله - الذي يضعه في القوس أو النبلة ونحوها - والرامي به»[2].

وقد ذكر لنا القرآن قصة داود عليه السلام، وامتنَّ عليه بأنه تعالى علَّمه صنعة الدروع في الحرب، وألان له الحديد، بالنار والطَّرق وغيرها وَفْق السنن، وليس بمعجزة كما يقول البعض، يقول تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال في سورة أخرى: ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وروى البخاري في صحيحه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده»[3]. أي: وهو ملك ذو سلطان، ومع هذا كان يأكل من صنعه الدروع السابغات.

وفي هذا حثٌّ وإغْراء للمؤمنين أن يقتدوا بداود عليه السلام في إتقان صنعةٍ من الصناعات الحربيَّة التي تحتاج إليها الأمة.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٤)، وفي الأوسط (٢٤٥٥)، وفي الصغير (٢/ ٢٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٥)، والبيهقي في الشعب باب الحث على ترك الغل والحسد (٢٦٥٥)، عن معاذ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار قال العجلي: لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ (٨/ ٣٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧٣٠٠)، وقال مخرِّجوه: حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده، وهذا إسناد ضعيف لجهالة خالد بن زيد، ويقال: ابن يزيد، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، وقال: حسن صحيح، والنسائي (٣١٤٦)، وابن ماجه (٢٨١١)، والحاكم (٢/ ٩٥)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، خمستهم في الجهاد، عن عقبة بن عامر.

(٣) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدام بن معديكرب.

وإنما تنتصر الأمة إذا استقلَّت بصناعة السلاح بأنواعه المختلفة، وأتقنتها وتفوَّقت فيها. وهذا يتمُّ بالإعداد والتخطيط والتعاون بين بلاد الإسلام بعضها وبعض، فلم تعُد الدولة القُطرية وحدها قادرة على صنع السلاح المتطوِّر المتفوِّق، فقد رأينا الدول الصناعية الكبيرة يتعاون بعضها مع بعض في صنع طائرة متميِّزة أو نحو ذلك.

والشرع يوجب على المسلمين - وجوبًا دينيًّا لا مرية فيه - أن يتَّحدوا في هذا الأمر ولا يختلفوا، وأن يجتمعوا ولا يتفرَّقوا، وأن يتعاونوا ولا يتنازعوا، كما قال تعالى في توجيه المؤمنين إذا لقوا العدو: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦].

فليت الأمة الإسلامية الكبرى اليوم تعي هذا الواجب الديني القومي العملي، وتُجمِّع صفوفها، وتُوحِّد كلمتها، حتى تستطيع حماية أرضها وعِرضها ومقدَّساتها، ولا تغدو نهبا للطامعين!

عدم الغفلة عن السلاح:

ومما يدخل في باب الإعداد العسكري للعدوِّ: عدم الغفلة عن السلاح، ولا يكفي أن تمتلك الأسلحة ثم لا تستعملها عند اللزوم، فكثيرًا ما يؤدِّي الاسترخاء وقلَّة الحرص، إلى أن يُلقي المقاتل سلاحه، ويحسب أنه في أمان كامل، فينتهز العدو المتربِّص هذه الفرصة، فيدخل منها ليوقع بالمسلمين، ويضربهم في غفلة منهم، وقد يُفْضي ذلك إلى التمكُّن من المسلمين، وإنزال الهزيمة بهم.

ومن روائع القرآن: ما نَبَّه عليه المسلمين، وهم يُؤدُّون صلاتهم في أثناء الحرب، وراء إمامهم الواحد، فالصلاة فريضة مُقدَّسة، وعبادةٌ ركنية، لا تُهمَل في سلم ولا حرب، بل هي عُدَّة رُوحيَّة للمحارب، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ [البقرة: ١٥٣]، ومن ذلك: الأمر بالصلاة في جماعة وراء إمام واحد في حالة الحرب: عناية بمبدأ الوحدة في القيادة، ولو في هذه الحالة الاستثنائية، كما أمرهم بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم، وهم في داخل الصلاة، واقفين بين يدي الله، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ**

﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فانظر إلى هذا التكرار والتأكيد وشدة التنبيه: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾، ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، ثم انظر إلى هذه الجملة العظيمة المعلَّلة لهذا التأكيد: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ولقد رخَّص في وضع الأسلحة في حالة العذر: من مطر أو مرض، ومع هذا اتبع هذا الترخيص بهذه الوصية أو هذا الأمر الجازم: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

وقد حدث للمسلمين في عصر النبوة شيء من ذلك في غزوه أحد، فقد أمر النبي ﷺ الرماة أن يحموا ظهرهم من جهة الجبل، وألا يَدَعوا أماكنهم لأيِّ سبب من الأسباب، ولكنهم نسُوا هذا الأمر النبوي الصريح، وتأوَّلوا لأنفسهم أن ينزلوا إلى الساحة لينالوا حظَّهم من الغنيمة، إذ لاح لهم أن المسلمين قد كسبوا الجولة الأولى في المعركة، فتركوا أماكنهم - مخالفين أمر الرسول وأمر قائدهم الخاص - وانكشف بذلك ظهر المسلمين، ولم يضيِّع هذه الفرصة قائد جيش المشركين خالد ابن الوليد - وكان لا يزال على الشرك - فانقضَّ عليهم من الخلف، وأعمل فيهم السيوف، وارتبك المسلمون، وخصوصًا بعد إشاعة قتل الرسول ﷺ، وتغيَّر اتجاه الريح لصالح أهل الشرك، وقتل من المسلمين سبعون من الأبطال الميامين، نتيجة هذه الثغرة التي أتاحها الرماة المسلمون لأعدائهم من حيث لا يحتسبون.

ونزل في ذلك القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم[1] بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

(١) أي: تعلونهم بالسيف.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

حماية السلاح من العدو:

ومن هذا الباب: أخذ الحذر بالتحصين من الأعداء، بحماية السلاح من العدو، فإن من أشدِّ الأخطار في الحرب الحديثة: أن يكتشف العدو مخازن الأسلحة، وقواعد الصواريخ، فيضربها ويدمِّرها، ويترك الأمة عارية أمام أعدائها، أو يباغتها بضرب سلاحها، وهي غافلة، كما فعل العدو الصهيوني في حرب ١٩٦٧م حين ضرب المطارات المصرية، وما فيها من طائرات في هجمات مفاجئة متتالية، فشلَّت يد القوَّات المسلحة المصرية، وأفقدتها القدرة على الحركة بعد أن ضُرب طيرانها ومطاراتها، وأصبحت الجيوش المصرية في سيناء مكشوفة لا يغطيها الطيران، ولا تسندهم قوة تحمي ظهورهم.

ب- إعداد المقاتلين:

وإذا كان العنصر الأول في (الإعداد العسكري) للأمة، هو: إعداد الأجهزة والمعدَّات من كلِّ نوع، فإن العنصر الثاني في الإعداد، هو: إعداد العنصر البشري المدرَّب على القتال، فمن المعروف أن الأسلحة - وإن بلغت من التطوُّر والإتقان ما بلغت - لا تقاتل وحدها، إنما يعمل السلاح بيد الجندي الذي يحمله ويستعمله.

وقديما قال الطُّغرَائي في لاميته:

وعادة السيف أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدي بطل

وقال أبو الطيب المتنبي:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا ... إذا لم يكن فوق الكرام كرام

فالخيل من غير (خيَّال) والفرس من غير فارس: لا تُجْدي.

ولهذا أمر الرسول الكريم ﷺ أبناء الأمة أن يُدرِّبوا أنفسهم على استخدام الأسلحة، حتى يكتسبوا المهارة في استعمالها، وإلا فقدت الأسلحة قيمتها.

روى الإمام مسلم في صحيحه، عن عُقبة بن عامر، أن النبي ﷺ فسَّر القوة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(١).

وموجب هذا: أن قوَّة السلاح الحقيقيَّة إنما تَتَجلَّى في حُسن استعماله، لهذا لم يقُل: إن القوة هي: السيف أو الرمح أو القوس، بل قال: «الرمي». فاعتبر الفعل البشري هو القوة الحقيقية.

ولم يكتفِ النبي ﷺ بتعلُّم الرمي والتدريب عليه، واكتساب المهارة فيه، فكثيرًا ما يتعلَّم المرء الشيء، ثم يُشغل عنه ويتركه ويُهمله، فينساه ويفقد المهارة التي اكتسبها بالتدريب، ولهذا كان من المهمِّ: الاستمرار في التدريب حتى لا ينسى.

ولهذا نرى بعض الأمم تستدعي جنود الاحتياط بين فترة وأخرى - حسب الحاجة - في دورة تستغرق أياما أو أكثر، وفي هذه الدورة يكسبون فائدتين:

الأولى: تعلُّم الجديد من فنون الحرب، مما لم يكونوا قد تعلَّموه، ولا سيما أن العالم الآن يتغيَّر بسرعة، والقدرات العسكرية تتطوَّر بما لا يخطر على بال، فلا بد أن يكونوا على وعي بما يحدث في العالم من حولهم.

والفائدة الثانية: ألا ينسوا ما تعلَّموه قديمًا، فهي مراجعة عملية للمكتسبات القديمة. وقديمًا قال علماؤنا: حياة العلم مذاكرته. والمذاكرة قد تكون بالمدارسة، وقد تكون بالممارسة.

ولا غرو أن وجدنا النبي ﷺ يُحذِّر من (نسيان الرمي) بعد أن تعلَّمه المسلم، وتعب في تحصيله. قال عليه الصلاة والسلام: «مَن تعلَّم الرمي ثم تركه، فليس منا، أو فقد عصى»(٢).

«مَنْ تعلَّم الرميَ ثمَّ نسيَهُ فهي نعمةٌ كفرها»(٣).

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٧)، وأحمد في المسند (١٧٤٣٢)، وأبو داود (٢٥١٤)، وابن ماجه (٢٨١٣)، كلاهما في الجهاد، عن عُقبة بن عامر.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٩)، والبيهقي في السنن كتاب السبق والرمي (١٠/ ١٣)، عن عُقبة بن عامر.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٤١٧٧)، والصغير (٥٤٣) عن أبي هريرة. وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٤٩١) رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط، وفيه قيس بن الربيع وثَّقه شعبة والثوري وغيرهما وضعَّفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.

ومن المهم في عصرنا: أن يكون المقاتل متعلِّما، حتى يستطيع أن يتعامل بسرعة ولياقة مع الآلات والمعدَّات الحديثة والمتطوِّرة، فإن الجندي الأُمي يصعُب عليه استيعاب (التقنيات) الدقيقة والمعقَّدة في بعض الأحيان، بل إنَّ كثيراً من المعدات الآن تدار إلكترونيًّا. وهذا من فروض الكفاية على الأمة: أن تمحو أميَّة أبنائها. بل أرى أن محو الأمية اليوم أصبح فريضةً عينية على كلِّ مسلم، ما لم يكن له عذر يمنعه، وعلى المجتمع أن يساعده على ذلك، كما على الدولة أن تُعينه على التعلُّم، وتتَّخذ من الوسائل ما يُحقِّق هذا الهدف النبيل.

٢- الإعداد الاقتصادي للجهاد:

ومن الإعداد المطلوب للجهاد: الإعداد الاقتصادي، وهذا يتطلَّب جملة أمور أساسية، منها:

أ- تهيئة الأمة لتغطية كلِّ مجالات الإنتاج، وبخاصَّة ما تحتاج إليه الحرب:

فيجب على الأمة أن تعتنيَ بجميع مجالات الإنتاج، لا أن تكتفي بشأن منها، وخصوصًا ما يحتاج إليه الجهاد والحرب، وما يشقُّ استيراده، وألا تكتفي بالزراعة وحدها، مُغفلَة الجوانب الأخرى التي تتطلَّبها الأمة القوية، مثل الصناعات المختلفة، وفي مقدمتها صناعه الحديد، التي أشار القرآن إلى أهميته في الحياة العسكرية، والحياة المدنية، حين قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فقوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، إشارة إلى الصناعات الحربية، وقوله: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، إشارة إلى الصناعات المدنية، والأمة القوية تحتاج إلى كلتيهما.

وقد حذّرنا الحديث الشريف من الرضا بالزرع والاكتفاء به، في حديث ابن عمر مرفوعًا: «إذا تبايعتم بالعِينة، ورضيتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله: سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[1].

(١) تقدم تخريجه صـ ٢٣٧. والحديث ينبئ بهذه العبارات: الرضا بالزرع، وإتباع أذناب البقر، وترك الجهاد، إلى الحالة النفسية لبعض الشعوب المحصورة في الزراعة وحدها بحيث يشتغل كلٌّ منهم بأرضه وبقره، ولا يعني بالجهاد إذا طلب منه للدفاع عن الدين والأمة؛ ولهذا قال: «وتركوا الجهاد في سبيل الله». أي: في حالة افتراضه عليهم. ثم اكتفاؤهم بالزرع وحده، دليل على تقصيرهم في المقومات الأخرى للأمة مثل الصناعة، فلا غزو أن يعاقبوا بالذلِّ تفرضه عليهم الأمم الغالبة.

ومن هنا يجب أن يشترك في التخطيط الاقتصادي خبراء عسكريون، يشيرون على الاقتصاديين والماليين بما توجبه الأهداف والضرورات التالية والخطط العسكرية من متطلَّبات، حتى تراعَى في الإنتاج، ولا تفاجأ الأمة عند المعركة بفقدان هذه الضروريات، التي قد لا تتوافر إلا عند خصومها، ولن يمكِّنوها منها بالقطع.

ب- ترشيد الاستهلاك والإنفاق:

ترشيد الاستهلاك والإنفاق الأهلي والحكومي، بحيث يتلاءم مع اقتصاد الجهاد أو اقتصاد الحرب، وبحيث تُقدَّم الضروريات على الحاجيات، والحاجيات على التحسينات أو ما يسمُّونه (الكماليات)، وبحيث تُمنع المحرَّمات تمامًا، مثل المسكرات والمخدِّرات، ويمتنع الناس عن الإسراف في المباحات، من المأكل والمشرب والملبس والزينة وسائر ما يتمتَّع به الإنسان.

والاستمتاع بالمباحات في الإسلام مقيَّد بعدم الإسراف، كما قال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١]، بل المطلوب في الإسلام هو التوسُّط والاعتدال، كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]، وكما مدح الله عباد الرحمن بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٧]، وخصوصًا في أيام الأزمات التي تنزل بالناس، كما في أيام الحروب، وأيام الكوارث، والقحط ونحوها. وقد ضرب القرآن مثلاً لذلك عن الاستهلاك والإنفاق أيام سنوات الجدب السبع في عهد سيدنا يوسف، بل في سنوات الخصب السابقة عليها، حيث وُضعت المنتجات كلُّها تحت المراقبة من حيث التخزين، وتقليل الاستهلاك، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ**﴾ [يوسف: ٤٧]، وكذلك يحدِّدون الاستهلاك في سنوات الجدب، ولذا قال: ﴿**يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ**﴾ [يوسف: ٤٨]، فهم الذين يقدِّمون لها، ويتحكَّمون في استهلاكها، ولا تُترك الأمور تجري بغير قيود وتنظيمات.

إن زيادة الإنتاج، لا تنجح وحدها، ما لم يكمِّلها ويضبطها سياسة استهلاك وإنفاق رشيدة، وإلا فإن يوفِّره المرشِّدون من أهل الإنتاج يمكن أن يضيِّعه السفهاء من أهل الإنفاق، ولهذا حذَّر الله من تمكُّن السفهاء من الأموال ليتصرفوا بحماقة بلا حكمة، وبسفه بلا رشد، فقال تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ [النساء: ٥].

في أيام الحروب تشدُّ الأمم الأحزمة على بطونها، ويحرمون أنفسهم من بعض ما كانوا يتمتَّعون به، وإذا كان جنودهم يبذلون الدم رخيصًا، فلا أقل أن يضحُّوا ببعض متعهم التي اعتادوها في أيام السلم والرخاء.

جـ- توفير التمويل اللازم للإنفاق على الجهاد ومتطلباته:

توفير المال اللازم للإنفاق على الجهاد ومتطلَّباته، ولهذا فرض الإسلام الجهاد بالمال إلى جوار الجهاد بالنفس، بل إنه يقدِّم الجهاد بالمال عادة على الجهاد بالنفس، إذ لا يمكن الجهاد إلا بمال، فبالمال يُصنع السلاح ويُشترى.

وبالمال نعدُّ الخيل قديمًا، ونعدُّ اليوم الدبابات والمجنزرات والسفن والغوَّاصات والطائرات والصواريخ والأسلحة النووية - إذا ملكها عدو وهددنا بها - وغيرها.

وبالمال يُنفق على الجيوش والقوَّات المسلحة، وعلى أهلهم وذويهم.

وبالمال نُؤمِّن الجبهة الداخلية.

وبالمال تُؤلَّف الدولة المسلمة قلوب مَنْ يمكن تأليفه من الأعداء ممَّن يستطيعون استمالته إليهم. وسنعود للحديث عن توفير الموارد المالية للجهاد في فصل مستقل[1].

د- التوزيع العادل لثروة البلاد:

توزيع الثروة توزيعًا عادلاً، بحيث يأخذ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، فيعطى الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه، ويُعطَى العامل على قدر جهده وإتقانه، ويعطى المحتاج على قدر حاجته، حتى تتمَّ له كفايته من المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وكل ما لا بد له منه هو ومَنْ يعوله على ما يليق بحاله من غير إسراف ولا تقتير.

(١) في الفصل السادس من هذا الباب

وعدالة التوزيع، وتحقيق التكافل المعيشي بين أبناء المجتمع، وشعورهم بأنهم في مجتمع يصون حقوقهم، ويرعى حُرماتهم، ويكفيهم حاجاتهم، ويُؤمِّن ذراريهم من بعدهم: تجعل أبناء المجتمع لا يضنُّون بأرواحهم من أجل الجهاد في سبيل الله، بخلاف ما إذا كانوا يشعرون بالتظالم الاجتماعي، وأنهم يُنسَون عند المغنم، ويُذكَرون عند المغرم! ولا ينالهم من ثروة وطنهم إلا الفتات، وأنهم يزرعون ليحصد غيرهم، ويغرسون ليجني القاعدون ثمرة ما غرست أيديهم: فهؤلاء لا يتحمَّسون للجهاد، ويقولون كما يقول العامة في المثل: نحن في همٍّ هؤلاء مدّعوون، وفي فرحهم منسيون. أو كما قال الشاعر قديما:

وإذا تكون كريهةٌ أُدعَى لها ... وإذا يُحاسُ الحَيسُ يُدعَى جُندب[1]!

ولا يجوز للحكام والولاة أن يستأثروا بالمال العام، أو يكون لهم منه نصيب الأسد، هم وأقاربهم ومحاسيبهم، مهملين أهل الاستحقاق والحاجة، فهم أحقُّ منهم وأولى.

روى البخاري في كتاب الجهاد، كيف قدَّم النبي ﷺ (أهل الصُّفَّة) على طلب ابنته وقرَّة عينه وأحب الناس إليه: فاطمة الزهراء. حين سألته - رضي الله عنها - وشكت إليه الطحن والرحى: أن يُخدِمها (يعطيها خادمًا) من السبي، فوكلها إلى الله.

كما روى كيف قدَّم عمر بن الخطاب أمَّ سَليط من الأنصار على زوجه أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهم، مع ما لها من وشائج القربى من رسول الله ﷺ[2].

روى البخاري في كتاب (فرض الخمس)، من طريق ابن أبى ليلى قال: أخبرنا علي رضي الله عنه: أن فاطمة عليها السلام، اشتكت ما تلقى من الرَّحى مما تطحنه، فبلغها أنَّ رسول الله ﷺ أُتي بسبي، فأتته تسأله خادمًا فلم توافقه،

---

(١) الحَيس: طعام يصنع من الدقيق والسكر، كالعصيدة ونحوها من المعجَّنات. يريد: أن أخاه جُندبًا له الشهيُّ من الطعام. أما هو فله شدائد الأعمال. والأبيات نسبت لهنيء بن أحمد الكناني ولغيره، والصحيح أنها لهنيء. انظر: معجم الشعراء صـ ١٤٨، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكرى (١/ ٤٢٤).

(٢) رواه البخاري عن عمر، وقد سبق تخريجه صـ ١٣٥ .

فذكرت لعائشة رضي الله عنها، فجاء النبي ﷺ فذكرت ذلك عائشة له، فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم، فقال: «على مكانكما». حتى وجدتُ برد قدمه على صدري، فقال: «ألا أدلُّكما على خيرٍ مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبِّرا أربعًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتما»[1].

فدلَّهما على ذكر الله تعالى والاستعانة به سبحانه، فربما كانت القوة الرُّوحية عوضًا عن المطالب المادية.

روى البخاري هذا الحديث في باب الدليل على أنَّ الخمس لنوائب رسول الله والمساكين، وإيثار النبي ﷺ أهل الصفة والأرامل، حين سألته فاطمة - وشكت إليه الطحن والرَّحى - أن يُخْدِمها من السَّبي، فوكلها إلى الله. وكأنه أشار بذلك إلى ما ورد في بعض طُرُق الحديث كعادته، وهو ما أخرجه أحمد من وجه آخر عن علي في هذه القصة مطولاً، وفيه: «والله لا أعطيكم، وأدع أهل الصفة، تَطوَى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»[2].

وروى أبو داود، عن أم الحكم بنت الزبير، قالت: أصاب النبي ﷺ سبيًا، فذهبت أنا وأختي فاطمة نسأله، فقال: سبقكنَّ يتامى بدر . . .»[3] انتهى.

٣- الإعداد الفكري والثقافي:

ومن الإعداد المطلوب من الأمة للجهاد: الإعداد الفكري والثقافي.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١١٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٧)، كما رواه أحمد في المسند (١١٤١)، وأبو داود في الأدب (٥٠٦٢)، عن علي.

(٢) رواه أحمد في المسند (٨٣٨)، وقال مُخرِّجوه: إسناده حسن، والحميدي في المسند (١/ ٢٥)، والطحاوي في السير (٣/ ٢٣٣)، عن عليّ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد وفيه عطاء بن السائب وقد سمع منه حماد بن سلمة قبل اختلاطه وبقية رجاله ثقات (١٠/ ١٢٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٩٨٤).

(٣) رواه أبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٨٧)، والطحاوي في السير (٣/ ٢٩٩)، عن أم الحكم أو ضباعة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٨٦).

ورأيي: أن أول ما يجب من ألوان إعداد الأمة للجهاد، هو: هذا الإعداد الثقافي والفكري، بمعنى إعداد عقول أبناء الأمة للجهاد، فلا تكون فكرة الجهاد غائبة عن وعي الأمة، بل يجب أن تكون هذه الفكرة حيَّةً وحاضرةً لدى خاصَّة الأمة وعامتها، في المدن والقرى، والحضر والبادية.

استحضار النصوص من الآيات والأحاديث:

وأقرب طريق إلى ذلك، هو استحضار آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحاح، التي تأمر بالجهاد في سبيل الله، وترغِّب فيه، وتُبيِّن فضله، وتحذِّر من إضاعته، أو التهاون في شأنه.

وبعبارة أخرى: يجب أن يدرَّس (باب الجهاد) باعتباره أمرًا أساسيًّا في الثقافة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، فتدرَّس نصوص من آيات الجهاد في أبواب تفسير القرآن، وتدرَّس نصوص من الأحاديث في شروح الحديث النبوي، وقد رأينا في كلِّ كتب السنة المصنَّفة على الأبواب والموضوعات: كتاب الجهاد.

استحضار السيرة والفتوح ووقائع التاريخ:

ويدرَّس من الناحية الواقعية في السيرة النبوية وغزوات الرسول، وفتوح الصحابة، والخلفاء الراشدين ومَن بعدهم، مع بيان أسباب هذه المعارك والفتوح ونتائجها.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ وتابعوهم بإحسان يغرسون في نفوس أبنائهم منذ نعومه أظفارهم الشجاعة وحب البطولة، والطموح إلى الجهاد والاستشهاد، بقصِّ أحداث السيرة والغزوات عليهم، لتتعلَّق قلوبهم بها، ولمحاكاة أبطالها، كما روي عن بعضهم أنه قال: كنا نُروِّي أبناءنا مغازي رسول الله ﷺ، كما نُحفِّظهم السورة من القرآن[1].

(١) نسبها في البداية والنهاية إلى علي بن الحسين (٣/ ٢٤٢).

إشاعة فقه الجهاد الحقيقي في الأمة:

ويُدرَّس الجهاد وأهم أحكامه في أبواب الفقه الإسلامي، وبيان عَلاقة المسلمين بغيرهم من الدول والشعوب، وبيان أنواع الجهاد بالنفس وبالمال، ومراتب الجهاد من جهاد النفس إلى جهاد الظلم والفساد والمنكرات في المجتمع، باليد ثم باللسان ثم بالقلب حسب الاستطاعة، ثم جهاد الكفار والمنافقين باليد واللسان.

ولا بدَّ من بيان أنَّ المسلمين سِلْمٌ لـمَنْ سالمهم، حربٌ على مَنْ حاربهم، وأنهم لا يقاتلون إلا مَنْ قاتلهم، أو اعتدى عليهم، أو حاول أن يفتنهم في دينهم، أو عاهدهم ونقض عهودهم، أو تجبَّر على المستضعفين في الأرض، أما مَن ألقى السلم إلى المسلمين، وكفَّ يده عنهم، فما جعل الله لهم عليه سبيلاً.

وإذا فرض على المسلمين القتال - وهو كره لهم - خاضوه خوض الأبطال، طلبًا لإحدى الحُسْنيين: النصر أو الشهادة.

بيان غايات الجهاد وأهدافه:

ولا بدَّ من توضيح غايات الجهاد في الإسلام، فليس المقصود منه: إكراه الناس على الدخول في الإسلام، فإنَّ الإسلام لا يعترف بصحة الإيمان إلا إذا كان عن اختيار حُرٍّ، واقتناع مَحْض، ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ٩٩].

وليس الغرض من الجهاد امتصاص خيرات الشعوب الأخرى، واغتنام أموالهم، أو فتح أسواق جديدة للمسلمين، أو أي كسب دنيوي من وراء الجهاد، فإن دخول أي شيء من ذلك في نيَّة المسلم أو الجماعة المسلمة يفسد الجهاد، ويخرجه عن كونه جهادًا في سبيل الله، وقد سُئل رسول الله ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُرى مكانه - أي للذكر والشهرة والسمعة - والرجل يقاتل حَمِيَّة - أي عصبية لقومه - فأيُّهم في سبيل الله؟ فقال: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». متفق عليه وقد تقدَّم.

لهذا كانت حروب المسلمين وفتوحهم في عهد الرسول وصحابته مخالفة لما عهده الناس من حروب الأباطرة والأكاسرة والقياصرة قديمًا، وما عرَفه الناس من حروب الاستعمار حديثًا، في الأهداف وفي الوسائل.

فالهدف: أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله هي: الحقُّ والخير والعدل، والوسيلة يجب أن تتقيَّد بالأخلاق والفضيلة، فلا يقرُّ الإسلام مبدأ: الغاية تبرِّر الوسيلة؛ بل يصرُّ على الغاية الشريفة والوسيلة النظيفة معا، فـ«إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّبا»[1]، ولا يرضى هذا الدين الوصول إلى الحقِّ بطريق الباطل، ولا يحقِّق الخير بوسائل الشرِّ أبدًا.

فالجهاد في الإسلام للدفاع عن الحقِّ والخير، ومقاومة الظلم والعدوان، سواء كان عدوانًا على الدين أم على الأنفس، أم على الأرض والحُرُمات، وهذا الجهاد مستمر إلى يوم القيامة. كما ينبغي التنبيه على أن الجهاد في الإسلام ليس هو الجهاد العكسري فحسب، بل هناك الجهاد النفسي، والجهاد الفكري، والجهاد الدعوي، والجهاد المدني، بلغ بها الإمام ابن القيم ثلاث عشرة مرتبة. وبعض الأحاديث فضَّلت جهاد الداخل، على جهاد الخارج في الفضل والأجر، كما في حديث: «أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر»[2].

بعض الآيات في فضل الجهاد:

ومن المهم هنا: أن يستقرَّ في عقل المسلم وضميره: فضل الجهاد ومنزلته عند الله، من خلال القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم.

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد في المسند (٨٣٤٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٨٨٣٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والنسائي في البيعة (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب، وصحح إسناده الألباني في الصحيحة (٤٩١).

اقرأ هذه الآيات في فضل الجهاد:

١- في سوره البقرة: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

٢- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٣- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٤- وفي سورة آل عمران: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

٥- وفي سوره النساء: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٤-٧٦].

٦- وفي السورة ذاتها: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

٧- وفي سوره المائدة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

٨- وفي سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٩- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦٠، ٦١].

١٠- وقوله في سورة التوبة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ١٩-٢٤].

١١- وقوله سبحانه في نفس السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

١٢- وفي نفس السورة: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً

صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

١٣- وفي سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

١٤- وفي سوره محمد: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤ -٨].

١٥- وفي سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

١٦- وفي سورة الصف: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

١٧- وفي نفس السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

والآيات في فضل الجهاد كثيرة في القرآن.

بعض الأحاديث في فضل الجهاد:

وحسبنا أن نعلم أن كتب الحديث الستة، وغيرها من الكتب المصنَّفة على الأبواب، كلُّها تشتمل على: (كتاب الجهاد) بالإضافة إلى: (كتاب المغازي) أي غزوات رسول الله ﷺ.

وحسبنا أن نختار من الأحاديث بعض ما انتقيناه في كتابنا «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للمنذري، في باب: (الترغيب في الجهاد في سبيل الله تعالى):

١- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله . . .» الحديث. رواه البخاري ومسلم[١].

٢- وعن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أيُّ الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى». قال: ثم مَن؟ قال: «ثم مؤمن في شِعب من الشِّعاب يعبد الله ويَدَعُ الناس من شرِّه». رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والحاكم بإسناد على شرطهما[٢].

٣- وعن سَبْرَة بن الفَاكِه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام، فقال: تُسلم وتَذَر دينك ودين آبائك؟ فعصاه، فأسلم، فغفر له.

فقعد له بطريق الهجرة، فقال له: تهاجر وتَذَر دارك وأرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر.

فقعد له بطريق الجهاد، فقال له: تجاهد وهو جهد النفس والمال فتقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة، ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد».

فقال رسول الله ﷺ: «فمَن فعل ذلك فمات، كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنة، وإن وَقَصَته دابة كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنة». رواه النسائي وابن حبان في صحيحه، والبيهقي[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العتق (٢٥١٨)، ومسلم في الإيمان (٨٤)، كما رواه أحمد في المسند (٢١٣٣١)، والنسائي في الجهاد (٣١٢٩)، وابن ماجه في العتق (٢٥٢٣)، عن أبي ذر.

(٢) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري، وقد سبق تخريجه صـ ٥٠٨.

(٣) في النسائي: «قعد لابن آدم بأطرقه: فقعد له بطريق الإسلام ...» إلخ، وهي جمع طريق على التأنيث، والحديث رواه أحمد عن سبرة بن الفاكه، وقد سبق تخريجه صـ ٥٣٧.

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عُيينة (أي عين صغيرة) من ماء عَذْبة فأعجبته، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشِّعب؟! ولن أفعل حتى أستأذنَ رسولُ الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإن مُقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا. ألا تحبُّون أن يغفر الله لكم، ويُدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، مَنْ قاتل في سبيل الله فُوَاق ناقة وَجَبَت له الجنة». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم[1]، ورواه أحمد من حديث أبي أُمامة أطول منه، إلا أنه قال: «ولَمَقَام أحدكم في الصفِّ خيرٌ من صلاته ستين سنة»[2].

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه». فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا، كلُّ ذلك يقول: «لا تستطيعونه».

ثم قال: «مَثَلُ المجاهد في سبيل الله كَمَثَل الصائم، القائم، القانت بآيات الله، لا يَفْتُر من صلاة ولا صيام، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله». رواه البخاري، ومسلم واللفظ له.

وفي رواية البخاري: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، دُلَّني على عمل يعدل الجهاد. قال: «لا أجده». ثم قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتُر، وتصوم ولا تفطر؟!». قال: ومَن يستطيع ذلك؟ فقال أبو هريرة: «فإن فرس المجاهد ليستنُّ - يمرح - في طِوَله فيكتب له حسنات». ورواه النسائي نحو هذا[3].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٠٧٨٦)، وقال مُخرِّجوه: إسناده حسن، والترمذي (١٦٥٠)، وقال: حديث حسن، والحاكم (٢/٦٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، كلاهما في الجهاد، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/ ١٦٠)، عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٠١).

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٩١) وقال مخرجوه: إسناده ضعيف.

و«فواق الناقة»: هو ما بين رفع يدك عن ضرعها وقت الحلب ووضعها، وقيل: هو ما بين الحلبتين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٧٨٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٨)، كما رواه أحمد في المسند (١٠٠٠٠)، والترمذي (١٦١٩)، والنسائي (٣١٢٤)، كلاهما في الجهاد، عن أبي هريرة.

و(استنَّ الفرس): عدا، و(الطِوَل) بكسر الطاء، وفتح الواو: هو الحبل الذي تُشدُّ به الدابة ويمسك طرفه لترعى.

٦- وعنه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض». رواه البخاري[١].

٧- وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، وَجَبت له الجنة».

فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعِدْها عليَّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها للعبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي[٢].

٨- وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»[٣].

فقام رجل رثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى، أنت سمعتَ رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جَفن[٤] سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدوِّ، فضرب به حتى قتل. رواه مسلم، والترمذي، وغيرهما[٥].

٩- وعن البَرَاء رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل مُقنَّع بالحديد، فقال: يا رسول الله، أقاتل أو أسلم؟ قال: «أسلم ثم قاتل» فأسلم، ثم قاتل، فقُتل، فقال رسول الله ﷺ: «عَمِل قليلا وأُجِر كثيرا». رواه البخاري واللفظ له، ومسلم[٦].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وأحمد في المسند (٨٤١٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٤)، والنسائي في الجهاد (٣١٣١)، عن أبي سعيد الخدري، ولم أجده في أبي داود.

(٣) تعبير مجازي من روائع البلاغة النبوية مثل قوله: «ألزمها فإن الجنة عند رجليها»، ويُفهم منه قرب ما بين الجهاد والجنة وما بين برِّ الأم والجنة.

(٤) الجفن هو القراب وهو المكان الذي يوضع فيه السيف وحمائله. ابن منظور، لسان العرب (١/ ٢٦١).

(٥) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٩)، وأحمد في المسند (١٩٥٣٨)، عن أبي موسى الأشعري

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٠)، كما رواه أحمد في المسند (١٨٥٦٥)، عن البراء. و(مُقنَّع) بضم الميم، وفتح النون المشدَّدة: أي متغطٍّ بالحديد، وقيل: على رأسه خوذة، وقيل غير ذلك.

ولفظ رواية مسلم: عن البَرَاء رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني النَّبِيت - قبيل من الأنصار - فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، ثم تقدَّم، فقاتل حتى قُتل فقال رسول الله ﷺ: «عَمِل هذا يسيرًا، وأُجِر كثيرًا»!

١٠- وعن أنس رضي الله عنه قال: انطلق النبيُّ ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال النبي ﷺ: «لا يَتَقَدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه». فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض».

قال عُمَيْر بن الحُمام: يا رسول الله، أجنَّة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بَخٍ بَخٍ! فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ؟». فقال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قَرَنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: إن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة! فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قتل[1]. رواه مسلم[2].

١١- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدًا». رواه مسلم، وأبو داود[3]، ورواه النسائي، والحاكم أطول منه[4].

---

(١) وهذا الجيل الرباني الذي تخرَّج في المدرسة المحمدية، كان نسيج وحده، وكان يتلقى الأوامر والتوجيهات النبوية بعقله وقلبه وكِيانه كله، يتلقاها ليبادر بتنفيذها لا لمجرَّد أن تعيها ذاكرته، أو يردِّدها لسانه، وهذا واضح في قصه عُمير بن الحُمام هذا، وفيما رواه البراء قبله، وفي حديث الرجل الذي سمع من أبي موسى أن الجنة تحت ظلال السيوف، فما لبث أن كسر جَفن سيفه، ومشى إلى العدو وقاتل حتى قُتل. رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) رواه مسلم في الجهاد (١٩٠١)، وأحمد في المسند (١٢٣٩٨)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٨)، عن أنس. و(القَرَن) بفتح القاف والراء: هو جَعبة النُّشَّاب.

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩١)، وأحمد في المسند (٨٩٢٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٤٩٥)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه الحاكم في الجهاد (٢/ ٧٢) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

١٢- وعن عبد الله بن حُبْشِي الخثعمي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شكَّ فيه، وجهاد لا غُلول فيه[١]، وحَجَّة مبرورة».

[قيل: فأيُّ الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»][٢].

قيل: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «جُهد المقلِّ»[٣].

قيل: فأيُّ الهجرة أفضل؟ قال: «مَنْ هَجَرَ ما حرَّم الله».

قيل: فأيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَنْ جاهد المشركين بنفسه وماله».

قيل: فأيُّ القتل أشرف؟ قال: «مَن أهريق دمه، وعُقر جواده»[٤]. رواه أبو داود، والنسائي واللفظ له، وهو أتمُّ[٥].

١٣- وعن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، ينجِّي الله - تبارك وتعالى - به من الهمِّ والغمِّ». رواه أحمد واللفظ له، ورواته ثقات، والطبراني في (الكبير) و(الأوسط)، والحاكم وصحَّح إسناده[٦].

١٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مكلوم يُكْلَم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة وكَلْمه يَدمَى، اللون لون دم والريح ريح مسك»[٧].

---

(١) الغُلول: الخيانة في الغنيمة بأخذ ما لا يستحقُّ.

(٢) الزيادة بين المعقوفين من النسائي، وطول القنوت: أي القيام، لما فيه من تلاوة القرآن، وخصوصًا صلاة الليل.

(٣) جهد المُقلِّ: ما يعطيه مَنْ قَلَّ ماله على قدر حاله، وإن كان يسيرًا.

(٤) ومعنى هذا أنه قدَّم النفس والمال جميعًا في سبيل الله.

(٥) رواه أحمد عن عبد الله بن حبشي، وقد سبق تخريجه صـ٥٤٠.

(٦) رواه أحمد في المسند (٢٢٧٧٦)، وقال مخرِّجوه: حسن وهذا إسناد ضعيف، وابن حبان في السير (٤٨٥٥)، والطبراني في الأوسط (٥٦٦٠)، والحاكم في الجهاد (٢/ ٧٥)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/ ٢٠)، عن عبادة ابن الصامت، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط أطول من هذا، وأحد أسانيد أحمد وغيره رجاله ثقات (٥/ ٤٩٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٧٢).

(٧) متفق عليه: رواه البخاري كتاب الذبائح والصيد (٥٣٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، كما رواه أحمد في المسند (٨٩٨١)، عن أبي هريرة.

وفي رواية: «كلُّ كَلْم يُكْلَم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها يوم طعنت تفجر دما، اللون لون دم، والعَرْف عَرْف مسك». رواه البخاري، ومسلم[1]، ورواه مالك، والترمذي، والنسائي بنحوه[2].

١٥- وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس شيءٌ أحبَّ إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشيه الله، وقطرة دم تُهْرَاق في سبيل الله. وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله». رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب[3].

وقفة مع النصوص:

هذه النصوص المتكاثرة التي سقناها من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، من شأنها أن تُعدَّ المسلم وتُعبِّئه فكريًّا وثقافيًّا للجهاد.

وهذا الإعداد الثقافي للجهاد: يجب أن تقوم به المدرسة والجامع والجامعة، وتتعاون عليه أجهزة التعليم والإعلام، سواء كان إعلامًا مقروءًا أم مسموعًا، أم مرئيًّا. فمن المطلوب من أهل العلم والفكر والتربية والتوجيه: أن يغرسوا في عقول الأمة وضمائرها - وخصوصًا ناشئتها - معاني الجهاد في سبيل الله، وتربية البطولة المؤمنة المستعدَّة للبذل والتضحية عندما يناديها المنادي، وتتعرَّض الأمة للخطر.

ومن أخطر ما يتعرَّض له بعض المسلمين اليوم في بعض ديار الإسلام: ما يُسمُّونه (تجفيف المنابع)، ويعنون بذلك: منابع التديُّن الإيجابي في التعليم أو الإعلام، بحيث يُحذف منهما كل ما فيه حثٌّ على الجهاد، أو على تغيير

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٢٣٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، كما رواه أحمد في المسند (٨٢٠٥)، عن أبي هريرة. و(الكَلْم) بفتح الكاف، وإسكان اللام: هو الجُرح. و(العَرْف) بفتح العين المهملة، وإسكان الراء: هو الرائحة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد (٢٨٠٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، كما رواه أحمد في المسند (٧٣٠٢)، والترمذي (١٦٥٦)، والنسائي (٣١٤٧)، ومالك (٩٨٤)، ثلاثتهم في الجهاد، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٩)، وقال: حسن غريب، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٥)، عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٣٦٣).

المنكر، أو مقاومة الظلم والطغيان، أو يُربِّي الشخصية المسلمة على مقاومة الضلال، والثورة على الباطل، واستنكار المظالم، **وإنما يبارك هؤلاء التديُّن المريض، والذي لا يعرف من الدين إلا الشركيات في العقيدة، والبدعيات في العبادة، والسلبيات في السلوك، تديُّن الموالد والأضرحة والنذور للأولياء.**

وبعض وزارات التربية والتعليم في بعض البلاد العربية حذفت من السيرة النبوية: الغزوات المتعلقة باليهود، بل حذفت من التاريخ الإسلامي: الوقائع الجهادية الكبرى في الصراع مع الفرنجة أو الصليبيين، مثل بعض معارك عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس وغيرهم.

بل حذفت كثيراً من النصوص في كتب القراءة والمحفوظات، التي تحمل روح الجهاد والمقاومة.

وازداد الأمر سوءا بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م (٩/١١) حيث طلبت أمريكا طلبًا مباشراً من كثير من عواصم الدول العربية والإسلامية - مثل السعودية وباكستان وغيرها - تغيير مناهج الدراسات الدينية في مدارسها الحكومية والأهلية. وهي تلحُّ في ذلك وتضغط بقوة، بشكل مباشر وغير مباشر!

٤- الإعدادُ النفسيّ والخُلُقيّ للجهاد:

وبعد الإعداد العسكري، والإعداد الاقتصادى، والإعداد الثقافي، يأتي: الإعداد النفسي والخُلُقي، وهو من ثمرات الإعداد الفكري والثقافي، وذلك بما يأتي:

الإيمان بسنة التدافع بين الناس:

أ- **غرس الإيمان بسنة التدافع بين البشر**، ودفع الله الناس بعضهم ببعض، حتى لا تتواكل الأمة، اعتمادًا على حُسن الظنِّ، بالحديث عن السلام، ولا تُهيِّئ نفسها لاحتمالات الهجوم من الآخرين. قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

حب الجهاد:

ب- **غرس حُبِّ الجهاد في نفس كلِّ مسلم**، بحيث يتمنَّى أن يكون له حظٌّ من الجهاد، فمَنْ لم يجاهد بالفعل عاش الجهاد في نيَّته وخاطره. ولهذا جاء في

الحديث الصحيح: «مَن مات ولم يَغْزُ ولم يُحدِّث نفسه بغزو: مات على شعبة من النفاق». رواه مسلم[1].

الجهاد الإسلامي يتمم كل خير:

ج- غرس الإيمان بأنَّ الجهاد ليس وراءه إلا الخير، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما النصر والغلبة على الكفار المعتدين، وإما الشهادة في سبيل الله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

عقيدة القدر:

د- غرسُ الإيمان بعقيدة القدر، وأنَّ ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنَّ الأمرين اللذين يخاف عليهما الناس، مكتوبان ومُحدَّدان عند الله، وهما: الرزق والأجل، فلا يملك أحدٌ أن ينقُص من رزقك فلسًا أو لقمة، ولا يستطيع أحدٌ أن يَنقُص من عمرك ساعة أو دقيقة أو لحظة، فالأرزاق مقسومة، والآجال محسومة، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

النصر من عند الله:

هـ- غرسُ اليقين بأنَّ النصر من عند الله، وأن المؤمنين منصورون، وأن مَن نصر الله نصره الله، وأنَّ مَن نصره الله فلن يُغْلب، ومَنْ خذله فلن ينتصر. قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) سبق تخريجه صـ ٨٣.

العزة الإيمانية:

و- **غرس العزَّة الإيمانية في نفس كل مسلم**، هذه العزَّة، التي هي من أخلاق المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ [فاطر: ١٠].

وأساس هذه العزَّة للمسلم: عُبوديته لله، وانتسابه إليه وإلى دينه القويم، ورسوله الكريم، وانتماؤه إلى خير أمة أخرجت للناس، وفي ذلك قال المسلم الصالح يناجي ربه:

ومِمَّا زادني شرفًا وعزًّا ... وكدتُ بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك: يا عبادي ... وأن أرسلتَ أحمد لي نبيا[1]

وقد قال عمر لأبي عبيدة: نحن كنا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نلتمس العزَّة بغيره أذلَّنا الله[2]!

ولهذا لا يجوز للمسلم أن يحني رأسه، أو يُذلَّ نفسه، وأن يقبل الضيم والهوان، إلا مكرَهًا مُضْطَرًا، كما قال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يُذلَّ نفسه»[3].

المؤمن القوي:

ز- **غرس معاني القوة في نفس كلِّ مسلم**. والمراد بالقوة: قوة النفس أولاً، وإن كانت قوة الجسم مطلوبة أيضًا، وهذه هي القوة التي نوَّه بها الحديث الشريف: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف». وهذه القوة تطرد العجز والوَهْن، ولهذا جاء في هذا الحديث نفسه: «واستعن بالله ولا تعجز»[4].

وقد وصف القرآن جماعة من المؤمنين أصابهم ما أصابهم من محن وخسائر في ساحة القتال: ﴿**فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦].

---

(١) البيتان نسبا للشافعي.

(٢) رواه الحاكم في الإيمان (١/ ٦٢)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن عمر بن الخطاب.

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٣٤٤٤)، وقال مُخرِّجوه: إسناده ضعيف من أجل علي بن زيد بن جدعان، وهو مع ضعفه قد خُولف فيه، والترمذي (٢٢٥٤)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤٠١٦)، كلاهما في الفتن، والبيهقي في الشعب باب في الإعراض عن اللغو (٧/ ٤١٨)، عن حذيفة، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٣).

(٤) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد في المسند (٨٧٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٧٩)، عن أبي هريرة.

الأمل الدائم:

ح- **طرد معاني اليأس والقنوط والاستسلام للهزيمة** إذا وقعت مرَّة، فالمؤمن لا ييأس أبدًا، ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧]، وهو يؤمن أن الأيام دُوَل، وإن مع اليوم غدًا، وإن غدا لناظره قريب، وإن مع الليل فجرًا، ومع العسر يسرًا، والعاقبة للمتقين، ووعد الله لن يتخلَّف للمؤمنين ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠]

تمنِّي الشهادة:

ط- **ترغيب المسلم في الشهادة في سبيل الله**؛ باعتبارها أغلى وأعلى ما يحرص عليه المسلم، ويطلبه من ربِّه عزَّ وجلَّ، حتى قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لوددتُ أن أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل»(١).

وسمع ﷺ رجلاً يقول: اللهم آتني أفضل ما آتيتَ عبادك الصالحين! فقال له: «إذن يُعقر جوادك، ويُهراق دمك»(٢).

وفي معركة بدر استشهد حارثة بن سراقة أصابه سهم غَرْب (طائش) فجاءت أمه تسأل النبي ﷺ عنه: إن كان في الجنة صبرتُ، واحتسبتُ، وإلا اجتهدتُ عليه في البكاء. فقال لها: «هَبِلتِ يا أمَّ حارثة، إنها ليست جنَّة واحدة وإنما هي جنان ثمان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى!»(٣).

وقال: «مَنْ سأل اللهَ الشهادةَ بصدق: بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»(٤).

وقال سبحانه: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [آل عمران: ١٧٠].

---

(١) رواه البخاري في الإيمان (٣٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البزار في المسند (٣/ ٣١٨)، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (٦/ ٢٨)، وأبو يعلى في المسند (٢/ ٥٦)، وابن خزيمة في الصلاة (١/ ٢٣١)، وابن حبان في السير (٤٦٤٠)، وقال الأرناؤوط: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن مسلم بن عائذ، والحاكم في الإمامة وصلاة الجماعة (٢/ ٧٤)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٥٥) عن سعد بن أبي وقاص.

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٧٤)، وأحمد في المسند (١٢٢٥٢)، عن أنس.

(٤) رواه مسلم عن سهل بن حنيف، وقد سبق تخريجه صـ ١٢٨.

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

ولهذا رأينا المسلمين في عهد الصحابة يتسابقون إلى الشهادة في سبيل الله كما في قصة عُمير بن الحُمام الأنصاري في غزوه بدر، حيث سمع النبي ﷺ يقول: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»[١].

وفي بدر تسابق سعد بن خيثمة وأبوه خيثمة: أيهما يذهب للجهاد مع الرسول، فاستهما - اقترعا - فخرج السهم لسعد، فقال له أبوه: يا بني آثرني بها. قال: يا أبت إنها الجنة، ولو كان شيء غيرها لآثرتك[٢].

وفي فلسطين رأينا الفدائيات، وأغلبهن فتيات في عمر الزهور، ومنهنَّ الفتاة والزوجة والأم والجدة. من هؤلاء الفتيات: وفاء إدريس[٣]، ودارين أبو عيشة[٤]، وآيات الأخرس[٥]، وعندليب طقطاقة[٦]، وهبة ضراغمة[٧]، وهنادي جرادات[٨]، وريم الرياشي[٩]، وميرفت مسعود[١٠]، وآخرهن فاطمة النجار[١١] يسابقن إخوانهن من الرجال في الجهاد وحُبِّ الشهادة في سبيل الله، الذين ضربوا أروع الأمثلة في الاستبسال والتضحية بالنفس، بتفجير أنفسهن لله، حين لم يكن لديهن صواريخ ولا أسلحة تغني.

٥- التحذير من الوَهْن النفسي:

وإذا كان من المعاني التي ربِّي عليها المسلمون: القوة النفسية التي لا تبالي بما يصيبها في سبيل الله، ولا تفكِّر أتقع على الموت أم يقع الموت عليها، فإن من المعاني التي يجب الحذر منها: الوَهْن الذي يصيب الأنفس، فتتعلَّق بالدنيا ومتاعها، وتكره الموت أو تخافه. وهو ما حذَّر منه الحديث الذي رواه أحمد

(١) رواه مسلم عن أنس، وقد سبق تخريجه صـ ٥٧٦.

(٢) رواه سعيد بن منصور في سننه باب فضل الشهادة (٢/ ٢١٥)، عن سليمان بن أبان.

(٣) من عرب ٤٨، وابنة الثامنة والعشرين، وأول استشهادية فلسطينية.

(٤) من مدينة نابلس بقطاع غزة، وابنة الرابعة والعشرين.

(٥) من مدينة بيت لحم، وابنة الثامنة عشرة.

(٦) ابنة الثالثة والعشرين.

(٧) من بلدة طوباس قرب جنين شمال الضفة الغربية.

(٨) ابنة الثامنة والعشرين.

(٩) زوجة وأم لطفلين، وابنة الثامنة والعشرين.

(١٠) ابنة التاسعة عشرة.

(١١) من بلدة جباليا شمالي قطاع غزة، وكانت في السابعة والخمسين، ولها ثمانية من الأولاد اعتقل ثلاثة منهم، وعدد من الأحفاد استشهد أحدهم.

وأبو داود، عن ثوبان مرفوعًا: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كلِّ أفق، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها!». قالوا: أمن قلَّة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ اللهُ من صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقْذفنَّ في قلوبكم الوَهْن!». قالوا: وما الوَهْن يا رسول الله؟ قال: «حُبُّ الدنيا وكراهية الموت»[1].

لم يسألوه عن المعنى اللغوي للوَهْن فهو معروف، وهو الضعف، ولكنهم سألوه عن سرِّه وعلَّته، فكشف لهم اللثام عن هذا السرِّ، وهو: «حبُّ الدنيا، وكراهية الموت».

في عهد الصحابة كانوا يتسابقون إلى الموت في سبيل الله، لإيمانهم بأنه عين الحياة، وليس موتا كما يحسب الجهال: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٤].

وكان خالد بن الوليد يبعث برسائل إلى قادة الفرس والروم يدعوهم إلى الإسلام، أو الانقياد لحكم المسلمين، ويختمها بقوله: وإلا غزوتكم بقوم يحبُّون الموت كما تحبُّون الحياة[2].

حذَّرت السنة النبوية: أن يشيع في الأمة روح الوَهْن الذي يعرضها إلى خطر الطمع فيها، والتداعي عليها كما يتداعى الجياع إلى القصاع، والتهامها في النهاية لقمة سائغة، وذلك حين تفقد الأمة روح المقاومة، وتفقد أسباب المناعة والصلابة، ويفشو فيها التخاذل والاستسلام.

وكأنما كان رسولنا الكريم ينظر من وراء الغيب إلى ما عليه أمتنا اليوم، ويعبر عن واقعها بهذه الكلمات البليغة، وعن هذه المؤامرة الدولية على أمة الإسلام، وقد بيَّن بوضوح: أن السبب لا يكمن في قلَّة عدد الأمة، وقد صدق، فالأمة اليوم مليار وثلث مليار من البشر أو تزيد، ولكنها كما وصفها: «غثاء كغثاء السيل»، والغثاء: ما يحمله السيل من حطب وخشب وورق وقش وأعواد، وغير ذلك من أشياء كثيرة يجمع بينها:

(١) رواه أحمد عن ثوبان، وقد سبق تخريجه صـ٢٤ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة عن الشعبي، وقد سبق تخريجه صـ٢٤ .

١- أنها غير متجانسة، وغير منتظمة.

٢- وأنها خفيفة سطحية لا ترسُب في الأعماق.

٣- وأنها ليس لها هدف معلوم، ولا طريق مرسوم، الماء في النهر له هدف ومصب في النهاية يصبُّ فيه، وله مجرى محدَّد يسير فيه إلى غايته.

أما ماء السيل، فهو يصعد وينزل، ويذهب من اليمين إلى الشمال وبالعكس، وقد يحطِّم في طريقه ما يحطِّم، بخلاف النهر.

وهكذا الأمة في (المرحلة الغُثائية) من حياتها: لا تجانس بينها ولا انتظام، تغلب عليها السطحية لا التعمُّق، فقدت هدفها وغايتها التي خُلقت لها وفُضِّلت من أجلها، كما فقدت طريقها ومنهجها الذي يصل بها إلى أهدافها.

٦- التحذير من الجبن والشح:

ومن الأخلاق التي حذَّر منها الإسلام، لمنافاتها لرُوح الجهاد، وحياة الأمة المجاهدة والفرد المجاهد: الجبن والشح.

وقد جاء في الحديث: «شرُّ ما في الرجل: شحٌّ هالع، وجبن خالع»[(١)].

والشحُّ الهالع: هو الذي يصحبه الهلع، وقد وصف القرآن الهلوع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠، ٢١]، والأصل في الشحِّ أنه بخل مع حرص، فإذا كان هالعًا كان من أشدِّ أنواع الشحِّ وأخبثها.

والجبن الخالع: الشديد كأنه يخلع فؤاد صاحبه من شدَّة خوفه. والمراد: ما يغمره من هواجس وأفكار، وإنما كان الجبن والشحُّ شرَّ ما في الرجل، لأن الدعوات لا تنتصر، والأمم لا تنهض، إلا بخُلُقين رئيسين: السخاء، الذي يهون معه بذل المال، والشجاعة، التي يهون معها بذل النفس، فإذا غلب الشحُّ فبخل الناس بالمال، وغلب الجبن، فضنَّ الناس بالأنفس، فلن تنتصر دعوة، ولن تنهض أمة.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٠٠٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، وأبو داود في الجهاد (٢٥١١)، وابن أبي شيبة في الحديث بالكراريس (٢٧١٤١)، وابن حبان في الزكاة (٣٢٥٠)، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/ ١٧٠)، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٩٢).

وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله تعالى من الجبن والبخل: الجبن ضنًّا بالنفس، والبخل ضنًّا بالمال، وهما أساس الجهاد: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

ففي حديث أنس المتفق عليه، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرَم والبخل»(١)، وروى البخاري من طريق عمرو بن ميمون الأودي قال: كان سعد - ابن أبي وقاص - يُعلِّم بنيه هذه الكلمات، كما يُعلِّم المعلِّم الغلمان الكتابة، ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يَتَعوَّذ منهنَّ دبر الصلاة: «اللهم إني أعوذُ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُردَّ إلى أرذل العمر، وأعوذُ بك من فتنه الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»(٢).

وكذلك صحَّ من حديث زيد بن أرقم: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، ومن الجبن والبخل . . .» الحديث(٣).

وعن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «إيَّاكم والشحَّ، فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشحِّ: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»(٤).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦)، كما رواه أحمد في المسند (١٢١١٣)، وأبو داود في الصلاة (١٥٤٠)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٢)، عن أنس.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٢)، وأحمد في المسند (١٥٨٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٧)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٤٧)، عن سعد.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٢)، وأحمد في المسند (١٩٣٠٨)، والترمذي في الدعوات (٣٥٧٢)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٨)، عن زيد بن أرقم.

(٤) رواه أحمد في المسند (٦٤٨٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، وابن أبي شيبة في الحديث بالكراريس (٢٧١٣٩)، وابن حبان في الغصب (٥١٧٦)، والطبراني في الأوسط (٦٧٥٠)، والحاكم في الزكاة (١/ ٤١٥)، وصحح إسناده، وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب الزكاة (٤/ ١٨٧)، عن عبد الله بن عمرو.

٧- التحذير من الميوعة والتخنُّث:

ومن الرذائل التي حذر منها الإسلام: الميوعة والطراوة والتخنث، وهي الرذائل التي إذا انتشرت في أمة، كانت كانتشار النار في الهشيم، وهي التي قال في مثلها شوقي:

وإذا أُصيب القومُ في أخلاقهم ... فأقِمْ عليهم مأتمًا وعويلا

يحرص الإسلام أن يحفظ على أبناء الأمة رجولتهم وخشونتهم، ولهذا حرَّم على الرجال التحلِّي بالذهب، ولبس الحرير الطبيعي الخالص أو الغالب[١]، كما نهى الرجل أن يلبس لِبسَة المرأة، والمرأة أن تلبس لِبسَة الرجل[٢]، ولعن المتشبِّهين من الرجال بالنساء، والمتشبِّهات من النساء بالرجال[٣]، وحَمَل بشدَّة على المخنَّثين من الرجال، الذي ترى أحدهم لا هو رجل، ولا هو امرأة، وربما كان - في حقيقته لا في صورته - أقرب إلى المرأة.

وقد كان سيدنا عمر يقول: ... اخشوشنوا، واخلولقوا، وارموا الأغراض، وانزوا نزوًا ...[٤].

---

(١) عن البراء رضي الله عنه قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: ... ونهانا عن ... وخاتم الذهب والحرير ... متفق عليه رواه البخاري في الجنائز (١٢٣٩)، ومسلم (٢٠٦٦)، كما رواه الترمذي (١٧٦٠)، كلاهما في اللباس، والنسائي في الجنائز (١٩٣٩)، وابن ماجه في الكفارات (٢١١٥)، عن البراء.

(٢) عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لِبسة المرأة، والمرأة تلبس لِبسة الرجل. رواه أبو داود في اللباس (٤٠٩٨)، والنسائي في عشرة النساء (٥/ ٣٩٧)، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٥١)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في الأوسط (٩٨٤)، والحاكم في اللباس (٤/ ١٩٤)، وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب الحياء (٦/ ١٦٧).

(٣) عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال. رواه البخاري في اللباس (٨٨٥)، وأحمد في المسند (٣١٥١)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩٧)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٤)، وابن ماجه في النكاح (١٩٠٤).

(٤) رواه ابن حبان في اللباس وآدابه (٥٤٥٤)، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي والأواني (٦١٨٦)، وفي الكبرى كتاب السبق والرمي (١٠/ ١٤)، عن أبي عثمان النهدي قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونحن مع عتبة بن فرقد بأذربيجان ...، وروي مثله في كتاب عمر لأبي موسى.

لا يريد الإسلام ذلك الرجل المترَف الناعم، الذي لا يتحمَّل الخشونة إذا فُرضت عليه في جهاد أو محنة من محن الحياة، والذي وصفه الشاعر بقوله:

خطراتُ النسيم تجرح خدَّيه ... ولمسُ الحرير يُدمي بنانَه[1]!

يريد الإسلام شبابًا صبورا على المكاره، قادرًا على احتمال المشاقِّ. ولا ريب أن الآمال الكبيرة، والأهداف الجليلة، لا تتحقَّق إلا بمكابدة الجهد والمشقَّة، يقول أبو الطيب:

لا يبلغ المجدَ إلا سيِّدٌ فَطِنٌ ... لما يشقُّ على السادات فعَّالُ

لولا المشقَّة ساد الناس كلهُمُ ... الجود يفقر، والإقدامُ قتَّالُ[2]

نريد شبابًا مثل سيدنا موسى الذي خرج من مصر حتى وصل إلى مَدْين في الشام، ماشيا على قدميه، ثم أوى هناك إلى الظلِّ وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقالت ابنة الشيخ الكبير لأبيها مشيرة إليه: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، فأشارت إلى صفتين مهمتين، هما أساس اختيار الرجال لجلائل الأعمال، وهما: القوة والأمانة. وسافر من مقر إقامته في سيناء حتى وصل إلى مجمع البحرين، وقال لفتاه: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]

لا نريد شبابًا كالذين وصفهم الشاعر محمود غنيم في قصيدته:

شباب العُرْب يا زيْنَ الشبابِ ... ويا أشبال آساد غضابِ

أرى منكم فريقًا حين يمشي ... يحك بأنفه متن السحاب

كليث الغاب في صلف وكبْر ... وليس لدى الكريهة ليث غاب

تفنَّن في محاكاة العَذارى ... وخالفهنَّ في وضع النقاب

ولا يخشى على شيء ويخشى ... إذا ثار الغبارْ على الثياب[3]!

(١) البيت لعبد الجليل الطباطبائي. (٢) البيتان لأبي الطيب المتنبي.

(٣) من ديوان (صرخة في واد) لمحمود غنيم. انظر: الأعمال الكاملة صـ٩٠، دار الغد العربي.

بل أقول: إن المرأة المسلمة لها حظُّها في الجهاد، بما يتناسب مع خصائصها الأنثوية، وقد ذكرنا في فصل (دور المرأة في الجهاد)[1] ما على المرأة من الجهاد، وما قامت به المرأة المسلمة في عهد النبوة والخلافة الراشدة، من المشاركة إلى جوار الرجل، حتى إن بعضهنَّ حمل السلاح وقاتلن في سبيل الله.

وقد قال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فبعد أن قرَّرت الآية هذا المعنى العظيم: أن الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل: ﴿**بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ**﴾ بيَّنت: أن مَن بذل جهدا من الجنسين في سبيل الله فلن يضيع عند الله، وذكرت الإخراج من الديار، والإيذاء في سبيل الله، والقتال والقتل، فكلٌّ هذا قد يقع من المرأة كما يقع من الرجل، وجزاؤه تكفير السيئات، ودخول الجنات، ثوابًا من عند الله، والله عنده حسن الثواب.

***

(١) انظر: الفصل السادس من الباب الأول من هذا الكتاب.

الفصل السادس

توفير الموارد المالية اللازمة للجهاد

تَطلُّب الجهاد لنفقات هائلة:

ومما يتمِّم موضوع إعداد الأمة للجهاد: إعداد الموارد المالية اللازمة لنفقات الجهاد والمجاهدين.

فمما لا ريب فيه، ولا خلاف عليه: أن الجهاد - بمعنى القتال - يتطلَّب نفقات هائلة، يعرفها الخبراء في هذا الفنِّ، ولا سيما في عصرنا؛ من شراء الأسلحة بأنواعها وألوانها.

ولم تعُد الأسلحة في عصرنا: سيفًا ورمحًا وقوسًا ونبلاً، ولم تعُد المعدات فرسًا تحتاج إلى علف محدود الكُلفة، ولم تعُد مجرد سفينة شراعية في البحر تصنع من الخشب، حتى المنجنيق لم يكن شيئًا باهظ التكاليف كأسلحة اليوم.

إن القوَّات المسلحة اليوم تحتاج إلى أسلحة برية، وأسلحة بحرية، وأسلحة جوية، والأسلحة البرية فيها: الدبابات والمجنزرات والمصفحات وغيرها.

والأسلحة البحرية: فيها السفن والبوارج والزوارق الحربية، وحاملات الطائرات العملاقة، والغوَّاصات التي تعمل تحت الماء، وغيرها.

والأسلحة الجوية، فيها الطائرات المقاتلة، والمروحيات، وقاذفات الصواريخ، وحاملات الرؤوس النووية والطائرات من غير طيار وغيرها. ومن ذلك: الأقمار الصناعية وسفن الفضاء، إلى المروحيات الصغيرة.

والأسلحة لم تعُد مقصورة على البنادق والرشاشات بصنوفها المختلفة، بل غدا هناك قنابل مختلفة الأنواع والأحجام والأهداف والقدرات، ومنها: القنابل الصاروخية والنووية والهيدروجينية، وغيرها مما يسمُّونه (أسلحة الدمار الشامل)، وقد أمسى مملوكًا للأقوياء، محظورًا على الضعفاء. وهناك القنابل الذكية، والقنابل العنقودية.

ثم الإنفاق على الجيوش والمقاتلين يستلزم نفقات يومية غير قليلة ولا يسيرة؛ نفقات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والفراش والغطاء والإضاءة والتدفئة

أو التبريد، والترفيه المباح، ونفقات العلاج والدواء، إلى نفقات التدريب المستمر، وغيرها.

ثم تأمين الجبهة الداخلية وتقويتها، لتظلَّ سنداً ومدداً للجبهة العسكرية.

فمن أين مصادر التمويل لهذا كله؟

ونبادر فنقول: إنَّ الجيش المسلم المجاهد، أو القوَّات المسلَّحة المسلمة تتكوَّن من أصناف أو مستويات ثلاثة:

١- الجند العاملون، وهم عمدة الجيش وأساسه، وهم المتفرِّغون للجندية.

٢- جند الاحتياط، وهم الذين يُدعَون عند الحاجة فيلبُّون، بعد أن استوفوا حظَّهم من التدريب والإعداد العسكري، وقضوا مدَّتهم ثم خرجوا من الجيش.

٣- الجند المتطوِّعون، وهم المدرَّبون في العادة، المستعدُّون للَّحاق بالجيش العامل، إذا هُدِّدت الأمة، أو اعتدى على حُرماتها معتدٍ أثيم.

فالصنفان الأوَّلان يُموَّلان من ميزانية الدولة، وأما الصنف الثالث فهو يموِّل نفسه، أو يموِّله أناس خيِّرون. وقد يتطوَّع الشخص بنفسه، ولكنه يحتاج إلى التسليح وإلى النفقة الشخصية. ولذا كان لا بد من حديث عن (الموارد المالية) للجهاد، أيًّا كان القائمون به:

مصادر تمويل الجهاد:

وفي ضوء الفقه الإسلامي: نجد مصادر عدَّة لتمويل جيش الجهاد، والقوَّات المسلَّحة، من جملة موارد مالية:

١- موارد الدولة وبيت المال:

فمنها: موارد الدولة من أملاكها، مثل مورد النفط في عصرنا، وما أشبهه من المعادن التي تملكها الدولة، وتدرُّ الملايين، بل البلايين.

ومنها: موارد بيت المال العام من الفيء والخراج وخُمس الغنيمة، وكانت في العصور الإسلامية هي المصدر الأساسي لتمويل الجيوش الإسلامية، وتهيئة (العطاء) الثابت للجنود. والعطاء بمثابة (الراتب) في عصرنا، وكان يُعطَى كلَّ سنة، والأولى أن يُعطَى الآن كلَّ شهر، لحاجات الناس العاجلة، والمتجدِّدة باستمرار.

وقد رأينا سيدنا عمر يرفض الاستجابة للصحابة الذين طلبوا منه توزيع الأرض المفتوحة على المقاتلين، ورأى - ومعه عليّ ومُعاذ - أن تبقى الأرض وقفًا على الأجيال الإسلامية، وينفق من رَيعها على أُعطيات الجند الذي يذود عن بيضة الإسلام. فكان ينظر إلى المستقبل، ويقول: أريد أمرًا يَسَع أول الناس وآخرهم[1].

وفي عصرنا أصبحت نفقات الجيوش على ميزانية الدولة العامة، فقد باتت نفقات هائلة، لا يمكن تركها لموارد أخرى غير مضمونة دائمًا. وهو اعتبار يؤيده النظر الشرعي.

٢- الزكاة من مصرف (في سبيل الله):

ومنها: مصرف (في سبيل الله) من مصارف الزكاة، فجمهور الفقهاء على أن المقصود به الجهاد.

قال العلاَّمة ابن النحاس في (مشارع الأشواق):

(يدفع إلى الغازي من الزكاة - وإن كان غنيًّا - قدر حاجته لنفقة وكسوة، راجعًا وذاهبًا ومقيمًا هناك، وإن طال مُقامه، ويدفع إليه فرس - إن كان يقاتل فارسًا - وسلاح.

قال الرافعي: يُعطَى ما يشتريهما به، ويصير ذلك ملكًا له، أي: إذا أراد الإمام، فإنه لا يتعيَّن دفعهما تمليكًا. بل لو رأى الإمام استئجارهما، فله ذلك.

قال بعضهم: ويُعطَى بعضه عياله. قال الرافعي: وليس ببعيد. ويشترط ألا يكون الغازي ممَّن له اسم في ديوان المرتزقة، فإن كان له حقٌّ في الديوان، لم يعطَ من الزكاة شيئًا. هذا مذهب الشافعي[2]، وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا يُصرَف إلى أغنياء الغزاة من الزكاة شيء[3].

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]: الغزاة وموضع الرباط، يعطَون ما ينفقون في غزوهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، وهذا هو قول أكثر أهل العلم. وهو تحصيل مذهب مالك[4].

---

(١) انظر: موقف عمر بتفصيل في كتابنا (السياسة الشرعية) صـ ١٨٨ - ١٩١ طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة، والأثر رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/ ١٩٤).

(٢) المجموع (٦/ ٢٣٧، ٢٢٨).

(٣) الجصاص (٤/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٤) تفسير القرطبي (٨/ ١٨٥) التوبة: آية (٦٠).

وقال محمد بن الحكم: ويعطى من الصدقة في الكُراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب، وكفِّ العدو عن الحوزة، لأنه كلَّه في سبيل الغزو ومنفعته.

قال القرطبي: وفي صحيح السنة قوله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدَّق على المسكين، وأهدى المسكين للغني». رواه مالك مرسلاً، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار[1]، ورفعه مَعمَر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْرِي عن النبي ﷺ[2].

وروى أبو زيد وغيره، عن ابن القاسم، أنه قال: كان يعطى من الزكاة الغازي، وإن كان معه في غزاته ما يكفيه من مال، وهو غني في بلده. وهذا هو الصحيح لظاهر الحديث المذكور.

وروى ابن وهب، عن مالك: أنه يعطى منها الغزاة ومواضع الرباط، فقراء كانوا أو أغنياء[3])[4] انتهى.

٣- الوقف الخيري:

ومنها: ما يُوقف على الجيش الإسلامي من الموسرين المسلمين، ومن أمرائهم وأهل الثراء فيهم، من أرض زراعية يُوقف رَيعها على الجهاد والمجاهدين، أو عائد محلات تجارية أو نحوها. وقد كانت (الأوقاف) في فترات كثيرة من التاريخ

---

(١) رواه أبو داود (١٦٣٥)، ومالك (١/ ٢٦٨)، وابن أبي شيبة (١٠٧٨٥)، والحاكم (١/ ٤٠٨)، وقال: هذا من شرطي في خطبة الكتاب أنه صحيح، فقد يُرسل مالك الحديث ويصله أو يسنده ثقة، والقول فيه قول الثقة الذي يصله ويسنده، أربعتهم في الزكاة، والبيهقي في الكبرى كتاب قسم الصدقات (٧/ ١٥)، عن عطاء بن يسار، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٠).

(٢) رواه أحمد (١١٥٣٨)، وقال مخرجوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وأبو داود (١٦٣٦)، وابن ماجه (١٨٤١)، وعبد الرزاق (٤/ ١٠٩) برقم (٧١٥١)، وابن خزيمة (٤/ ٦٩)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، وصححه على شرطهما، ولم يخرجاه لإرسال مالك بن أنس إياه عن زيد بن أسلم، خمستهم في الزكاة، والبيهقي في الكبرى كتاب قسم الصدقات (٧/ ١٥)، عن أبي سعيد الخدري، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٤٩١).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ١٨٥ - ١٨٧)، طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(٤) انظر: مشارع الأشواق (٢/ ١٠٢٧، ١٠٢٨).

الإسلامي من موارد التمويل لكثير من أعمال الخير، ومنها: التعليم والطبّ والجهاد.

وقد وقف سيدنا خالد بن الوليد: أدراعه وسلاحه في سبيل الله[1].

وقد اختلف الفقهاء في (وقف النقود). والذي أرجّحه جواز وقف النقود، تشجيعًا لاتجاهات الخير في أنفس الناس، بل أرى جواز وقف النقود سنين معيَّنة عشرين سنة أو أكثر أو أقل، لجهة من جهات الخير، ومنها: الجهاد، أو الدعوة، أو التعليم، ونحوها. على أن تستغلّ في معاملات غير مخُوفة المخاطر، ومتَّفقة مع أحكام الإسلام.

٤- مساهمات أهل الخير:

ومنها: مساهمات الأفراد في تجهيز المقاتلين، باعتبار ذلك ضربًا من الجهاد بالمال، وقد أمر الله المؤمنين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، واعتبر ذلك من دلائل الإيمان: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحجرات: ١٥]، واعتبر ذلك من التجارة الرابحة المنجِّية من العذاب الأليم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ [الصف: ١٠، ١١].

وهناك فرصة لمَن لم تمكِّنه ظروفه الصحية أو الاجتماعية أو النفسية من الجهاد بالنفس: أن يجاهد بالمال، فيجهِّز مقاتلاً بديلاً عنه، فكأنما شارك في القتال بذلك. وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «مَن جهَّز غازيا في سبيل الله فقد غزا»[2].

وتستطيع إدارة الجيش: أن تعيِّن الحدَّ الأدنى لقيمة تسليح المقاتل الواحد وتجهيزه، بما يلائم من السلاح، وأدناه: رشاش ومقادير معينة من الذخيرة، ونفقته

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)، كلاهما في الزكاة، كما رواه أحمد في المسند (٨٢٨٤)، وأبو داود (١٦٢٣)، والنسائي (٢٤٦٤)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة، فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله، وأما خالد، فإنكم تظلمون خالدًا، قد احتبس أدراعه وأعتده في سبيل الله، وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول الله ﷺ، فهي عليه صدقة ومثلها معها».

(٢) متفق عليه عن زيد بن خالد، وقد سبق تخريجه صـ١٢١ .

الخاصة لمدة شهر، أو ستة أشهر، أو سنة مثلا، فكم يساوي ذلك: عشرة آلاف أو عشرين ألفًا من الدنانير أو الجنيهات أو الريالات أو الدراهم أو غيرها من العملات؟ فمَن أراد أن ينال أجر الغزو دفع هذا المبلغ لتجهيز الغازي.

ومنها: أن يُجهِّز المقاتل المتطوِّع نفسه بالسلاح المناسب له، مثل البندقية أو المدفع الرشاش، ومعه بعض الذخائر، ويمكن أيضًا التزوُّد ببعض القنابل، وهذا إذا فتح الجيش الباب للمُتطوِّعين المحتسبين، ليقوموا بدورهم مختارين، ملتزمين بأوامر الجيش وتوجيهاته. وينبغي للجيش المسلم ألا يحرم نفسه من بركات هؤلاء المؤمنين المتحمِّسين، أو المحاربين القدماء، فقد يكون من ورائهم خير كثير، على أن يضع لذلك من الشروط والمواصفات والضوابط ما يراه لازمًا، حتى لا يتسرَّب إلى الجيش عناصر قد تكون أداة خلل وفساد.

وقد لا يكون هناك دولة تُنظِّم أمر الجهاد، لسبب من الأسباب، فتقوم الجماعة المسلمة بما يجب أن تقوم به الدولة، من تنظيم أمر الجهاد وموارده، وقَبول المعاونات المختلفة من الداخل والخارج، كما رأينا في جهاد أفغانستان للشيوعيين، وفي جهاد البوسنة والهرسك للصربيين المعتدين، وكما في جهاد الفلسطينيين ضد الصهاينة المغتصبين، لسنين طويلة. فالاعتماد في تمويل الجهاد حينئذ على الشعوب والجماهير المسلمة، وما تبذله من أموالها في سبيل الله.

الأحاديث النبوية المرغِّبة في الإنفاق في سبيل الله:

وفي ذلك جاءت الأحاديث النبوية مُرَغِّبة في الإنفاق في سبيل الله. وأكتفي هنا ببعض الأحاديث أنقلها من كتابنا «المنتقى من الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري رحمه الله:

١- عن خُرَيم بن فَاتك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أنفق نفقة في سبيل الله كُتبت له بسبعمائة ضعف»[(١)]. رواه النسائي، والترمذي وقال: حديث حسن، وابن حِبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد[(٢)].

---

(١) وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

(٢) رواه أحمد في المسند (١٩٠٣٥)، وقال مُخرِّجوه: إسناده حسن، والترمذي (١٦٢٥)، وقال: حديث =

٢- وعن زيد بن خالد الجُهَني رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن جهَّز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومَن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا». رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي[(١)].

ورواه ابن حبان في (صحيحه)، ولفظه: «مَن جهَّز غازيًا في سبيل الله، أو خلفه في أهله: كتب الله له مثل أجره، حتى إنه لا ينقص من أجر الغازي شيء»[(٢)] ورواه ابن ماجه بنحو ابن حبان، ولم يذكر «خلفه في أهله»[(٣)].

٣- وعن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحْيان: «ليخرُجْ من كلِّ رجلين رجل». ثم قال للقاعد: «أيكم خلف الخارج في أهله، فله مثل أجره». رواه مسلم، وأبو داود، وغيرهما[(٤)].

٤- وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَن جهَّز غازيا في سبيل الله فله مثل أجره، ومَن خلف غازيا في أهله بخير، أو أنفق على أهله فله مثل أجره». رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله رجال الصحيح[(٥)].

= حسن، والنسائي (٣١٨٦)، كلاهما في الجهاد، وابن حبان في السير (٤٦٤٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٦)، والحاكم في الجهاد (٢/ ٨٧)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن خريم بن فاتك، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٣٢٦).

(١) متفق عليه عن زيد بن خالد، وقد سبق تخريجه صـ١٢١.

(٢) إنما كان لمَن جهَّز الغازي ووفَّر له ما يحتاجه من سلاح وعتاد، وكذلك مَن خلفه بخير في أهله وعياله ورعى مصالحهم وحاجاتهم، هذا الأجر المساوي لأجر الغازي المجاهد، لأن هذا من تمام الجهاد، بل من لوازمه، فلا بد للمجاهد من سلاح حتى يقاتل، ولا بد له من رَكوبة توصِّله إلى الميدان، ولا بد له من مؤونة... إلخ، ذلك كله من التجهيز المطلوب. كما لا بدَّ للمجاهد أن يطمئن على أهله وأسرته، وأنهم لن يضيعوا من بعده، ولهذا اعتبر هذا كله من الجهاد أو الغزو، وبتعبير الحديث: "فقد غزا".

(٣) رواه أحمد في المسند (١٧٠٣٣)، وقال مُخرِّجوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه عطاء - وهو ابن أبي رباح - لم يسمع من زيد بن خالد، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٩)، وابن حبان في السير (٤٦٣٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في الكبير (٥/ ٢٥٦)، عن زيد بن خالد، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٣٧).

(٤) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٦)، وأحمد في المسند (١١١١٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٠)، عن أبي سعيد الخدري.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٧٨٨٣)، عن زيد بن ثابت، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح (٥/ ٥١٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٣٩).

٥- وروى مسلم عن أنس، أنَّ فتى من أسلم، قال: يا رسول الله! إني أريد الغزو، وليس معي ما أتجهَّز به! قال: «ائت فلانًا، فإنه كان قد تجهَّز فمرض». فأتاه، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول: أعطني الذي تجهَّزت به. قال: يا فلانة، أعطيه الذي تجهَّزتُ به، ولا تحبسي عنه شيئًا. فوالله، لا تحبسي منه شيئًا، فيبارك لك فيه[1]!

وهكذا كانوا يتعاونون في تمويل الجهاد، لينال كلٌّ منهم حظَّه من المثوبة والأجر عند الله، هذا بنفسه، وهذا بماله.

٦- وعن أبي أُمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقات ظلُّ فسطاط في سبيل الله، ومَنِيحَة خادم في سبيل الله، أو طَرُوقَة فحل في سبيل الله». رواه الترمذي وقال: حديث حسن[2].

(طَرُوقَة الفحل) بفتح الطاء، وبالإضافة: هي الناقة التي صلحت لطرق الفحل، وأقل سنِّها: ثلاث سنين وبعض الرابعة، وهذه هي الحِقَّة. ومعناه: أن يعطي الغازي خادما، أو ناقة هذه صفتها؛ فإن ذلك أفضل الصدقات[3].

تسابق الصحابة على الجهاد بالمال:

وكان الأغنياء من المسلمين يُسهمون بسخاء في تمويل الجيش المسلم عندما تشتدُّ حاجته، كما رأينا موقف عثمان بن عفان رضي الله عنه في تجهيزه لجيش العُسرة، في غزوة تبوك، وكانت غزوة ذات أهمية خاصة، حيث سيواجه الرسول والمسلمون أكبر قوة عسكرية في العالم يومئذ، وهي دولة الروم البيزنطية، التي تحتلُّ بلاد الشام ومصر وإفريقية وغيرها. وهي على مسافة بعيدة من المدينة،

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٤)، وأحمد في المسند (١٣١٦٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٧٨٠)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٢٣٢١)، حديث حسن وهذا إسناد ضعيف جدًّا، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٧)، وقال: حسن صحيح غريب، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٤)، عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٣٢٨).

(٣) والمراد أن أفضل الصدقات كلُّ ما يعين المجاهد على جهاده، ويجعل حياته مريحة ميسَّرة، وبخاصة ما كان له صفة الدوام والاستمرار، كأن يعطيه خيمة يستظلُّ بها، أو خادمًا يساعده، أو ناقة يشرب من لبنها.

ويحتاج كلُّ مجاهد إلى رَكوبة يمتطيها، كما أنها كانت في وقت حرج، وقت جنْي الثمار، الذي ينتظره الناس عادة، مع شدَّة الحرِّ في ذلك الوقت.

ورأينا من تنافس الصحابة في ذلك ما تقرُّ به أعين المؤمنين.

روى الدارمي، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: سمعتُ عمر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَتَصدَّق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلتُ: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقتُه يومًا! فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله: «ما أبقيتَ لأهلك؟». قلتُ: مثله. قال: فأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده، فقال: «يا أبا بكر، ما أبقيتَ لأهلك؟». فقال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه! فقلتُ (القائل عمر): لا أسابقك إلى شيء أبدا[1]!

وكانت هذه الصدقة بمناسبة تجهيز جيش العُسرة.

وهكذا كان أفراد المسلمين لا يبخلون بمالهم عن نُصرة دينهم إذا دعا داعي الجهاد، موقنين أنَّ الله تعالى يُخْلف عليهم ما أنفقوه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٦٠].

وكان هذا البذل من المسلمين لنُصرة الله ورسوله، من أشدِّ ما يزعج المنافقين ويقلقهم، فكانوا يُحرِّضون بعضهم بعضًا: أن يقبضوا أيديهم عن الإنفاق على نصرة الرسول وصحبه، لعلهم ينفضُّون عنه، لعلمهم بأهمية عنصر المال في تأييد الدعوات، يقول تعالى في سورة المنافقين: ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ [المنافقون: ٧].

---

(١) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح، والدارمي في الزكاة (١٦٦٠)، والبزار في المسند (١/ ٢٦٣)، والحاكم في الزكاة (١/ ٤١٤)، وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب الزكاة (٤/ ١٨٠)، عن عمر، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٧٢).

وقد روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، عن حذيفة في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أنه فسَّر ﴿التَّهْلُكَةِ﴾ بترك النفقة في سبيل الله[١].

وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس وعكرمة والحسن ومجاهد وعطاء وابن جبير وقتادة، وغيرهم نحو ذلك. ذكر ذلك القرطبي والسيوطي وغيرهما.

وروى أبو داود وغيره نحو ذلك عن أبي أيوب الأنصاري: أن الإلقاء باليد إلى التهلكة: أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد[٢].

٥- ضريبة الجهاد تترتب على الموسرين:

ومنها: ما يرتَّب على الأغنياء عند (عجز بيت المال) كلياً أو جزئياً، عن القيام بهذا الأمر، من ضرائب أو أعباء مالية، لسدِّ حاجة الجهاد والمجاهدين، وهو ما أشار إليه إمام الحرمين في (الغياثي)، ومنه اقتبس تلميذه الغزالي في (المستصفى)، وبعدهما الشاطبي في (الاعتصام)، وذكروا ضوابطه وشروطه[٣].

قال الشاطبي في الاعتصام: (إذا قرَّرنا إماماً مُطاعاً مفْتقراً إلى تكثير الجنود لسدِّ الثغور، وحماية الملك المتَّسع الأقطار، وخلا بيت المال، وارتفعت حاجات الجند إلى ما لا يكفيهم، فللإمام إذا كان عدلاً أن يوظِّف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال، إلى أن يظهر مال في بيت المال، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلاَّت والثمرات وغير ذلك؛ كيلا يؤدِّي تخصيص الناس به إلى إيحاش القلوب، وذلك يقع قليلاً من كثير، بحيث لا يجحف بأحد ويحصل المقصود، وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتِّساع بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا... فإنه لو لم يفعل الإمام ذلك النظام بطلت شوكة الإسلام، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار)[٤].

---

(١) عن حذيفة: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. قال: نزلت في النفقة. رواه البخاري في التفسير (٤٥١٦)، والطبراني في الأوسط (١٧٢٤).

(٢) رواه أبو داود عن أبي أيوب، وقد سبق تخريجه صـ٥٣٣.

(٣) انظر: الغياثي للجويني صـ٢٦١، ٢٦٢ تحقيق د. عبد العظيم الديب. طبعة الشؤون الدينية بقطر ١٤٠٠هـ، والمستصفى للغزالي (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦) تحقيق حمزة بن زهير حافظ.

(٤) انظر: الاعتصام للشاطبي (٢/ ٨٥).

وهل يعتبر ما يؤخذ من ذوي الأموال في تلك الحالة إقراضًا لبيت المال يُردُّ عند الميسرة، وتوافر أموال تكفي لتحقيق المطالب الدورية الناجزة، ولأداء القرض؟ أو هو واجب على القادرين، أدَّوه طائعين أو مجبورين، ولا يجب على بيت المال ردُّه؟

والذي نُرجِّحه هنا: أنَّ ما أُخذ لمثل هذه الحالة المهمة من الدفاع عن حوزة الأمة، ووزِّع على القادرين بالقسط، كلٌّ حسب ماله وثروته، وصُرف في حقِّه كما ينبغي، فهو من الحقوق الواجبة في المال بعد الزكاة، وهو من الجهاد بالمال الواجب على أهله، والذي ثبت وجوبه بالقرآن والسنة، ومثله لا يعدُّ قرضًا لبيت المال، فلا يجب ردُّه.

ويقوم مقام هذا الآن: (الضرائب) التي تُؤخذ من المواطنين، وغدت في كثير من البلاد هي المورد الرئيس لخزانة الدولة، وهي جائزة بشروطها، كما بيَّنا ذلك في كتابنا: (فقه الزكاة)[1].

ويمكن للدولة المسلمة: أن تطلب من بعض كبار الأغنياء - عند الحاجة - قروضًا لسداد أغراض مطلوبة تعجز ميزانيتها عن الوفاء بها، على أن تردَّها إليهم عند المَيْسرة. وذلك بعد أن يكون قد أسهموا بنصيبهم في معونة الجهاد مع سائر الناس.

٦- المكاسب الخبيثة أو التي فيها شبهة:

ومن الموارد التي يمكن أن يُستفاد منها هنا: ما كان خبيثًا من المكاسب، مثل (فوائد البنوك) التي اتَّفقت مجامع الفقه الإسلامي كلُّها - في الأزهر، ورابطة العالم الإسلامي، ومجمع الفقه الدولي الإسلامي، وغيرها - على تحريمها، وأنها (الربا الحرام)[2]. فما جاء المسلم منها: وجب أن يتعفَّف عنه، ولا يُدخله في ملكه، كما لا يَدَعه للبنك الربوي، بل يأخذه لا لينتفع به، بل ليضعه في وجوه الخير، ومنها: الجهاد في سبيل الله، ولا سيما ما كان فيه مقاومة للاحتلال والاستعمار، وتحرير أرض الإسلام من المعتدين.

---

(١) انظر: فقه الزكاة الباب التاسع (الزكاة والضريبة) الفصل السابع (هل تفرض ضرائب مع الزكاة) (٢/ ١٠٨٠ - ١١١٢) الطبعة الخامسة والعشرون نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) انظر: كتابنا (فوائد البنوك هي الربا الحرام) صـ١٣٥ - ١٩٥ طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة.

ويزداد تأكُّد ذلك بالنسبة للفوائد في البنوك الأجنبية، في أوربا وأمريكا وغيرهما، فبعض الخليجيين يودوعون فوائض أموالهم، وهي أحيانا تعدُّ بالمليارات، ولها فوائد تُعدُّ بالملايين وعشرات الملايين، وهذه لا يجوز بحال من الأحوال أن تُترَك لهذه البنوك، لأنها تعطيها للجمعيات الخيرية عندهم، وهي إما جمعيات يهودية، أو جمعيات كَنَسية، كثيرًا ما تكون (تنصيرية) أي إن هذا المال الذي هو مال المسلمين في الأصل، ينتهي إلى أن يُستخدَم في فتنة المسلمين وإخراجهم من دينهم.

وللمجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي قرارٌ واضح وحاسم في هذا الأمر، يُرجى مراجعته، وسنضعه في ملاحق هذا الكتاب[1].

فهذه المكاسب الخبيثة مُحرَّمة على مَن اكتسبها من الحرام، حلال لجهات الخير، فمن المعلوم شرعًا: أنَّ مصرف المال الحرام، هو: الفقراء وجهات الخير، ومنها: سبيل الله والجهاد، بلا نزاع من أحد من المسلمين. ولاسيما إذا قلّت أو ضاقت الموارد الأخرى.

***

(١) انظر: الملحق الرابع من ملاحق هذا الكتاب.